الاب جوزيف شريفرز

# بَذل الذات

كنيسة مارجرجس باسبورتنج

الأب جوزيف شريفرز

# بَذل الذات

# القسم الأول

## المبادئ الأساسية لبذل الذات



# الفصل الأول

## من العدل أن نبذل ذاتنا لله

## المقالة الأولى

### الله مبدأ الأشياء كلها

بذل الذات للّه يعنى تسليم جسدنا وروحنا إليه ، والتخلى له عن كل قوانا ونزاعاتنا ومشاعرنا ورغباتنا ومخاوفنا وآمالنا ومخططات مستقبلنا ، غير تاركين لنفسنا سوى الاهتمام بمحبته .

بذل ذاتنا للّه يعنى أن ننسى أنفسنا ، ونضع فى قلب يسوع كل شواغلنا واهتماماتنا ومشاكل حياتنا اليومية الكثيرة ، ونَكِلَ إلى عنايته كل مصالحنا مكلفينه بتدبير كل شئ وتدارك كل نقص .

بذل ذاتنا للّه يعنى أن نعدل عن الاهتمام بأنفسنا ولا نفكر إلا باللّه ، وأن نقف ذواتنا للأعمال التى تؤول إلى مجده ، وأن نبسط بحسب إمكاناتنا سلطان الحق والخير ، ونتفانى فى خدمة إخوتنا حباً باللّه ونساعد ونعلّم ونعزّى ، وخصوصاً أن نهدى الغير ونقودهم إلى اللّه .

بذل الذات يقوم بالخضوع الدائم للمشيئة الإلهية

وسط كل الحوادث والتقلبات ، والإذعان الساذج البنوى لمشيئات الآب السماوى ، والاستسلام التام للتدابير التى ترتضيها العناية الإلهية .

طوبى للنفس التى اسلمت ذاتها ليسوع بسذاجة ، لأن يسوع بدوره يهب لها ذاته . إنه يستولي على النفس التي تحبه ويأخذ بيده مصالحها ويريحها من الهموم التى تشغلها ، ويحميها من كل أعدائها ، ويقيها كل الأخطار ولا يطلب منها مقابل ذلك سوى أن تعطيه قلبها .

هكذا يكون العطاء المتبادل بين يسوع والنفس ، عطاء كله محبة . ما أجمل هذا العطاء المتبادل ، إنه حياة حب تجتذب النفوس الطاهرة والقلوب الكريمة .

ما أسعد وجوداً يكفر فيه الإنسان بذاته فيهبها كلها ليسوع ويترك له أن يتصرف بخليقته كما يشاء .

ما أشهى أن يشارك الإنسان المسيح فى عمله ، يرى نفسه وقد كلفه يسوع بالسهر على مصالحه ، ويتفاوض معه فى طرق انتزاع نفوس خالدة من براثن الجحيم .

ما ألذ السلام وما أصفي السعادة التي يجدها المرء عندما يستطيع أن يغوص فى كل آن فى محيط الألوهية الذى لا حد له ، فيحس فيه أنه بعيد كل البعد عن جميع الترّهات التى تشغل نشاط البشر .

ما أحلى ذلك المصير الذى تؤول إليه النفوس الحساسة والقلوب المحبة عندما ترى أنها تعيش فى ألفة يسوع الإلهية فتشاركه أفراحه وتقاسمه متاعبها ، وتنسيه بحنانها عقوق البشر .

يا يسوع ! إننى أتوق أن أكون فى عداد هذه النفوس السعيدة ، أروم أن أعقد معك عهداً أخوياً ، فأعطيك قلبى لأمتلك قلبك ثم أنسى ذاتى معك وأرافقك إلى جلب النفوس إليك . إنه لحلم سماوى جميل .

هذا الحلم الجميل . بوسع كل واحد أن يحوله إلى حقيقة عذبة . وحسبه أن يسير فى طريق الحق ، حسبه أن يرجع إلى اللّه فى كل حين بمحبة .

إن اللّه هو مبدؤنا . فهو الذى خلقنا ، وهو يبقينا على قيد الحياة ويشترك فى كل أعمالنا . هو يعمل فى كل وقت فى قوانا وحواسنا وكل خلية من خلايا جسمنا . فلنعترف بمحبة بسامي سلطانه : إن في ذلك بذل الذات .

إن العمل الإلهى يسرى فى أفكارنا وعواطفنا ، وأعمالنا كلها . هو يسند كل خليقة ويشترك فى كل حركة من حركات الكائنات باسرها . فلنستسلم بلا خوف إلى العناية الإلهية ولنمتثل بمحبة لإرادة اللّه

السامية التى لا يستطيع أحد أن يفلت منها . إن فى ذلك أيضاً بذل الذات والقداسة .

حياتنا تجرى فى حضن اللّه . إنه حاضر فى كل مكان بجوهره الإلهى حضوراً حقيقياً كما فى السماء فلنلقين ذواتنا بين ذراعيه لأن الكمال هو أن نتركه يحملنا . الحياة الكاملة أن نحيا على صدر اللّه كما يحيا الطفل على صدر أمه . لنُلقِ عليه همومنا ولنِكل إليه أمر تدبير حاجاتنا مكتفين بمحبته : تلك هى الحياة الروحية ومقدمة حياة المحبة الخالدة .

## المقالة الثانية

### الله غاية الأشياء كلها

ليس اللّه مبدأ كل الأشياء فقط ، بل هو أيضاً غاية كل المخلوقات عموماً ، وكل كائن على وجه التخصيص . إن لأقل حشرة كامنة تحت ورقة هدفاً فى الوجود كما لحيوانات الغابة الضارية . ذرة الغبار المتطايرة فى الهواء لها هدفها كالاجرام اللامحدودة التى تجوب الفضاء . أوضع البشر ، والعبد المجهول التائه فى قلب الصحراء . له غاية يسعى لتحقيقها أسوة بالملك الحاكم فى مقدرات الناس .

كل ما هو مخلوق من عظمة واستحقاق يتوارى أمام الله ذى الجلال اللانهائى . وكل كائن ، بما أنه من خلق الله ، مدعو ليحقق مقاصد الله فيه : « أنا الألف والياء ، البدءاة والنهاية . الأول والآخر يقول الرب » (١) .

إن الكائن غير العاقل وغير الحر يسير بصورة حتمية نحو الهدف الذى حدده له الله . أما الانسان فقد نال وحده من الله ذاك الامتياز الخطر ، أن يبلغ غايته بملء اختياره وحريته . فإنه على مثال الله يعرف الخير والشر ، يعرف أن العقل أعطى له ليدرك الحقيقة وأن ارادته وهبت له ليتعلق بالخير الأسمى . فإذا امتثل لهذا الترتيب الإلهى ، واستسلم لإرادة الله ، بفعل تلقائى صادر عن القلب . حقق الغاية التى خلق لأجلها .

غاية الانسان أن يبذل ذاته لله بحسب تدبيره تعالى : ذلك واجبه الأول والأخير الذى يحوى الواجبات كلها .

كل إنسان يبلغ سن الرشد يجد ذاته ، فى كل عمل من أعماله الحرة ، أمام هذين الأمرين : مراعاة النظام الإلهى أو تشويشه . وكل إنسان يختار لزاماً أحد هذين الموقفين ، فقد قال يسوع المسيح : « من ليس معى فهو علىّ » .

---

(١) رؤ١: ٨ ، ١٧ .

مسكينة هي النفس التي ترفض طاعة اللّه ! فإنها تحكم بذلك على ذاتها بالاضطراب والحزن والشقاء . أننا نرى في كل مكان نفوساً شقية وأسراً مفككة ودولاً في فوضى . في كل مكان يسود الاضطراب لأن الناس يرفضون طاعة اللّه . لقد استقرت الثورة بصورة دائمة في المجتمع لأن الإنسان تمرد على النظام وعلى السلطة وحتى على اللّه . فكل مخالفة تحمل معها عقابها .

إن اللّه يبلغ دوماً الغاية التي رسمها : إنه يمسك بيده العالم وكل ما فيه ، فلا تستطيع أية خليقة أن تفلت من سلطانه الأسمى ، وهو لن يعطي مجده لآخر . « أنه يبلغ من غاية إلى غاية بالقوة ، ويدبر كل شئ بالرفق (١) فتعاقب الممالك ، وازدهارها وسقوطها والحوادث التي ملأت تاريخ العالم ، والحروب ، والانقلابات والاكتشافات : ذلك كله قد وجّهه اللّه إلى غاية هو يعرفها .

كثيرون ظنوا أنهم يقررون مصير العالم ، لكنهم كانوا أدوات غير واعية بين يدي العامل الإلهي . لا يتم على الأرض شئ إلا ويستخدمه اللّه لبلوغ غايته . فقد يحدث الشر أضرار كثيرة ، وقد تفسد المجتمعات أو تنصرف عن عبادة اللّه فتجدف على اسمه القدوس ، وقد يرتّد الناس ،

---

(١) حكمة ٨ : ١ .

فى كبرياء جنونية ، على اللّه فيتقصونه عن قلوبهم وعن عائلاتهم . وقد يسمح اللّه بأن تكون لهم مظاهر النجاح ، وقد يدع كنيسته تضطهد وخدامه يعيّرون ، وقد يسمح للتجديف بأن يصول رافع الرأس وللرذيلة بأن تجرر وقاحتها فى كل مكان . لكن محبة اللّه هى الغالبة فى النهاية .

يا يسوع ! إنك غايتى الأخيرة ، وهدف وجودى ، فإليك أسلم ذاتى لتقودها إلى ينابيعك .

## المقالة الثالثة

### الله هو العلة المثالية لكل شئ

إن اللّه هو مبدع الخلائق وغايتها ، وهو أيضاً علتها المثالية لم يكتف بتعيين نقطة انطلاق الخليقة وخاتمة الرحلة التى تقوم بها على الأرض . بل رسم لها أيضاً الطريق التى يجب أن تسير فيها .

فهو إذ صنع الانسان على صورته ومثاله وأعده ليعكس فى ذاته خطوط رسمه الإلهى . فقد أراد أن يكون مثالاً له فى كماله .

إن اللّه يرى منذ الأزل كل الكائنات التى يستطيع خلقها والتى سيخلقها فى الواقع ، وكل منها مرتب فى تدبيره بطبيعته الخاصة وبدرجة الجمال والكمال التى عليه أن يبلغها .

فى هذا التدبير الإلهى حددت الطريق التى ستسلكها كل خليقة على الأرض ، وموعد ظهورها فى العالم ، والدور الذى ستقوم به ووقت زوالها . كل تفاصيل وجودها مسجلة بوضوح فى ذلك التدبير ، وحرية الكائنات العاقلة لا تعطل فى شئ هذه الدقة الإلهية ، فالماضى والمستقبل حاضران أمام اللّه .

وانتِ ايضاً يا نفسى . قد ميزكِ اللّه منذ الأزل . لقد رآك فى جوهره ، بين عدد لا يحصى من الكائنات ، لا كجزء منه بل كصورة لكماله غير المحدود ، لجماله الإلهى . ومنذئذ عين الخطوط التى ستميزك عن كل خليقة ، والجمال الذى ستختصين به . وهو فى الوقت نفسه قد حدد بدقة غير متناهية الطريقة التى تبلغين بها هذه القداسة . ورسم السبيل الذى تسيرين فيه على الأرض ، وعين المؤهلات والوسائل التى تكون فى متناول يدك المساعدات التى ستقدم لك واحوال الزمان والمكان الخارجية التى تعيشين فيها ، والناس الذين تتصلين بهم واصغر الحوادث المؤثرة فى حياتك .

إنه سبق فعرف المصاعب التى تلاقينها فى ممارسة الفضيلة فى أعماق قلبك ، وجهاداتك وسقطاتك وانتصاراتك ، والصبر اللامتناهى الذى سيبديه نحوك .

لقد بارك بفرح منذ الأزل إخلاص ارادتك وحماسة

قلبك واستقامته . وسُر بالمحبة التي ستخرج من قلبك كما تتدفق المياه الصافية من نبع غزير . ومنذئذ فرح بالألفة التي تكون يوماً بينكما .

لقد كنت في فكر الله منذ الأزل ، أنا الخليقة الصغيرة الحقيرة . فأحبنى إذ لم أكن أستطيع بعد معرفته (١) . لقد خط لى الطريق وهو يمسكني بيدى حتى لا أحيد عنه يميناً أو يساراً .

أيها السيد القدير ! إنك تدبر خلائقك باشفاق كثير (٢) وتسهر عليها بعناية أبوية . إنك تشفق أن يبتعد أبناؤك عنك فيهلكوا . فأنعم عليّ بأن أحبك مدى الحياة .

## المقالة الرابعة

## خلاصة الفصل الأول

الله مبدئى . فعلى عقلى أن يعترف له بسيادته المطلقة عليّ والله غايتى . فعلى إرادتى أن تبذل له ذاتها بلا تحفظ . الله مثالى ، فيجب أن تكون حياتى كلها صورة عن هذا المثال الإلهى .

إننى تجاه الله ، فى وضع خضوع مطلق كلى فلا يكفى أن أعبده معفراً جبهتى بالتراب ، كمبدع وحيد لكل

---

(١) أرميا ٣٧ : ٣ .        (٢) حكمة ١٢ : ١٨ .

ما هو فى الوجود ، لا يكفى أن أنزع إليه بكل طاقة نفسى كما أنزع إلى الغاية الوحيدة لوجودى . بل يجب أيضاً أن أتبعه خطوة خطوة ، فى كُل لحظة من حياتى ، وأن أستسلم لقيادته ، وأن أتركه يتصرف بى كسيد بحسب مشيئته .

نعم ، يا رب ، إنك تريد أن أبذل لك ذاتى لا بتقديس نفسى فحسب ، بل بطريقة هذا التقديس أيضاً . إنه ليس سيان عندك أن أتبع هذا الطريق أو ذاك لأبلغ السماء فقد رسمت لى الطريق بذاتك ، منذ الأزل .

ليس فى حياتى حدث لم تسبق فتعرفه بحكمتك وترتبه بعنايتك . ليس لى ما أغيره ولا ما أضيفه ، ولا ما أحذفه ليس لى أن أتوق إلى مصير غير الذى أعطى لى . ليس لى أن أتحسر أو أشتكى . ليس لى أن أسألك عن أسباب تصرفك تجاهى ، ولا أن أعرف لم خلقتنى بهذه الطباع وبهذه المؤهلات ، أو بذلك العجز وبهذه الأهواء ، بهذه الثورات الداخلية أو بهذه النزعات . لست ملزماً بأن تفسر لى لِمَ أوجدتنى على الأرض فى هذا الزمان لا فى زمان آخر ، وفى هذا المكان المعين وهذا المحيط وهذه الظروف المؤاتية أو غير المؤاتية .

يا إلهى ! سواء جعلتنى غنياً أو فقيراً ، عالماً أو

جاهلاً ، شريف الأصل أو خامل النسب ومجهولاً ومحتقراً ، أو أعطيتني نعماً وضياء منعتها عن غيرى ، وأحطت نفسى بحمايات لم تعطها لآخرين : فمن هذا كله ، ليس لى أن أطلب منك حساباً . فى هذا كله تكمن مقاصدك الأزلية بشأن نفسى ، وعلىّ إذن أن أتقبلها وأن أقدس ذاتى .

يا نفسى ! كم كنت عائشة فى الأوهام عندما كنت تضمين بذاتك مناهج القداسة ، عندما كنت تحلمين ، بمعزل عن مقاصد اللّه ، بكمال عيشة وأعمال وأنوار وتعزيات وصلبان لم تكن لك . كم كنت تضلين عند اتباعك مسالك ضيقة فيما خط لك اللّه نفسه . منذ الأزل ، جادة عريضة واسعة .

لا ، لا تسألى المارة على الطريق الحقيقى الذى يفضى إلى اللّه لأنهم لن يعرفوا بم يجيبون ، إنهم يعرفون مصيرهم ويجهلون مصيرك . فسيرى غير هيابة ، فاللّه معك ، لا يطلب منك سوى الطاعة والخضوع لارادته السامية .

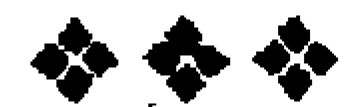
هذا المصير الذى هيأه اللّه منذ الأزل لكل نفس ، قد عين لها فى الزمان . حياة الانسان تتابع كلوحات واسعة سجلت فيها سلفاً كل الحوادث والأحوال . يقول اللّه :

أعبد وارض . والنفس البسيطة تجيب : إنني ارضى واحب واستسلم لك . أما النفس اللامبالية فتمر من غير ان تحفل بالكنز الذى تهمله والكرامة التى تستخف بها ، والنفس المقاومة تلعن وتجدف . لكن عمل اللّه يستمر ، حاملاً معه فى كل برهة واجباً جديداً ، ومقدساً بلا انقطاع النفس التي تستسلم له .

إننى استسلم لك ولخضع لارادتك يا إلهى ، يا مبدأ كيانى وغاية وجودى ومثال عملى .

مهمتى ان اتبعك خطوة خطوة ، كالولد الذى يمسك بيد امه . انا لا اريد ان اسبقك ولا ان اتخلف عنك . ساسير على خطاك متمماً واجبات اللحظة الحاضرة قابلاً الصلبان التى تاتينى بها ، ومستسلماً لارادتك ومقاصدك الحاضرة والآتية .

انا أعلم ان كل ما ياتى من يدك حسن ، لأن عنايتك الإلهية قد سبقت فعرفت كل شئ ونظمته .



# الفصل الثانى
## من الحكمة أن نبذل ذاتنا لله
## المقالة الأولى
### ان الله يهتم بتقديس النفس المستسلمة إليه

بذل الذات للّه هو أن نقدم له كياننا بمحبة مضطرمة وأن ننسى ذاتنا فلا نهتم بها وأن نكل اللّه تدبير كل شئ انه تسليم تام للّه .

أنا اعرف أن الحكمة البشرية تحتج على كلمة التسليم هذه فقد تروم أن تقيم بعض التحفظات ، وأن تطلب ضمانات ، وأن تضع على اللّه شروطاً . الا يظهر أن عملية التقديس على هذا النحو تصير كصفقة تجارية بين اللّه والنفس كعقد ثنائى يحاول فيه الفريقان المتعاقدان تأمين مصالحهما الشخصية قبل كل شئ ؟ لننبذ هذه المفاهيم الحقيرة لأنها من وحى حكمة الجسد .

لن نستسلم للّه جسداً وروحاً ، ونرتمى فيه كما يرتمى الطفل على عنق أمه ، ونحبه ، فنقول له ذلك ونردده بلا انقطاع : ذلك هو الكمال ، ذلك هو سر القديسين وطريق اجتذاب قلب اللّه .

إن يسوع لا يريد أن تشغل النفوس بشئ آخر غير محبته وإظهار هذه المحبة له . أترى ملك الملوك تنقصه

القوة والحكمة والصلاح ، حتى تخاف النفس على مستقبلها ؟ اننا لو نظرنا إلى اهتمام بعض النفوس القلقة لظلتنا ذلك ؟

أيها السيد ! لقد صممت منذ الأزل أن تقدمني ولم تبدع الكون إلا لتخلصني .

لقد قال يسوع لاحدى القديسات : « إنني مستعد أن أتحمل عذابات آلامي كلها مراراً تساوى عدد النفوس الهالكة . ولكن واحسرتاه ! انها ترفض الخلاص المعروض أمامها » . وأنتِ يا نفسي المستسلمة ليسوع بدافع المحبة ، كيف تخافين ؟ الأم ، التي تسند خطوات ولدها الأولى هل تترك هذا الولد يقع في التراب ؟ وأنتِ إذ تمدين يدك ليسوع أتخافين أن يتركك في نصف الطريق ؟ .

إن اللّه يريد تقديس النفوس . ولذا يترك المجتمع قائماً رغم الدود الذى ينخره ، ويتغاضى عن المجدفين على اسمه القدوس والناكرين عنايته والمثيرين غضبه الإلهي .

ومن أجل تقديس النفوس يدبر اللّه الكون وينظم تتابع الفصول وينزل أمطاره على حقل الصديق كما على حقل الخاطئ .

الرب عظيم وجدير بكل تسبيح (١) إنه في العالم كله،

---

(١) مز ٤٧ : ٢ .

لم يخلق كائناً ، ولا يسمح بأى حادث ، أو بأى سوء ، إن لم يكن ذلك أثلاً إلى خير النفوس .

فهيا يا قلبى ! دع صغر النفس وتوكل على الله . أغمض عينيك واستسلم لذراعيه . ألم يقل يسوع : « لايستطيع أحد أن ينزع منى أولئك الذين أعطانيهم الآب » ؟ (١) أحب إلهك ، اصنع كل شئ بمحبة ، تقبل كل شئ من يده ، ثم تقدم غير هياب فتصل إلى القداسة .

## المقالة الثانية

### ان الله يضع حكمته وقدرته فى خدمة النفس المستسلمة له

إن الله يريد تقديسك ، ألعله يجهل ما يوافق نفسك ؟ أتحسب نفسك قادراً على ارشاده بعلمك ؟ .

أيها الإنسان ! دع عنك هذا الاهتمام . فأنت لا تعلم من أين أتيت وتجهل إلى أين تذهب .

هل كنت حاضراً عندما رتبت الحكمة الإلهية الكون ، ورسمت للكواكب سبيلها ، وقالت لموج البحر : لن تعدو إلى ما أبعد ؟ هل طلبت مشورتك عندما خلقت النفوس الخالدة بنفخة من فمها ورسمتها بصورتها ؟

---

(١) يو ١٠ : ٢٩ .

إن رسم صورة اللّه فى النفس لعمل يفوق علم الإنسان وهو من اختصاص اللّه وحده فاخش أن تشوش عمله .

نفسك آية كمال وجمال . كل ما فيها من شعور وعقل وإرادة ونعمة وفضائل مرتب بطريقة مدهشة . ذرة غبار تستطيع أن تعرقل سير هذه الآلة العجيبة . فما بالك تتدخل بإرشاد من أبدعها بهذه الدقة ؟ أنت أعمى وتريد أن تقود ذاتك ! تراقب بقلق قيادة اللّه لنفسك وتعترض على الحركة التى يدفعك إليها والهدوء الذى يتركه لك . يا جاهل ! أنت لم تر هذه النفس التى تريد سياستها فدع عنك هذا الاهتمام فاللّه لم يرسم لك سوى أمر واحد وسهل : أن تحبه ، واحتفظ لنفسه بما هو صعب . فاقنع بنصيبك واللّه يتولى ما تبقى .

إن عمله يشمل العالم من أقصاه إلى أقصاه ويداخل المخلوقات كلها حتى اللب ، حتى الجوهر . فهو الذى يخلقها ويحفظها ويحركها. هذا العمل الإلهى يملأ الكون : إنه سرى وخفى ، غير أن الإيمان وحده قادر على كشفه .

إن ما رسمه صلاح اللّه لتقديس النفوس وما أمرت به حكمته لابلاغها هذا الهدف الأسمى ، تحققه قدرته الإلهية .

أيتها النفوس التقية : إن اللّه يعنى بتقديسكن وقدرته

تفعل فى هذه الآونة عينها وأنتن تخضعن لفعله القدير : كل ما يجرى فيكن وخارجكن من الحوادث يغدو لكن أدوات للنقش والتجميل : الأفراح والأحزان ، النجاح والفشل ، التعزيات والضيقات ، الآمال والمخاوف ، ذلك كله يتحول إلى أداة بين يدى ذلك الصانع المبدع .

انه ينتقى بذاته مساعديه فى هذا العمل الإلهى . فإن احتاجت النفس إلى مرشد ليبلغها الكلمة المؤاتية ، ارسل الله هذا الانسان من أقاصى الأرض ومهّد أمامه الجبال وهدأ أمواج البحر ، وإن دعت الحاجة فإن اللّه ذاته ينقله كما رفع حبقوق قديماً ووضعه بقرب جب الأسود . إن النفس المحتاجة إلى مثل هذه المساعدة لا تحرمها ولو اقتضى ارضاؤها قلب نظام الكون .

إن عمل اللّه فى تقديس النفوس ذوات الارادة الحسنة لا يعرف حدوداً ، ولا تستطيع خليقة أن تمنعه أو توقفه ، لأنه يسمو على الصعاب ويعلو على الحواجز . إن العنف يتلاشى أمام صبر نفس مستسلمة للّه ، والحيلة ترتبك فى شباكها أمام بساطة هذه النفس ، والكذب يرتج عليه أمام براءتها السانجة . وما كان يظن خراباً للنفس البسيطة يصبح لها خلاصاً . وما يحاك بكل دقة للنيل من فضيلتها على حين غرة يثبتها فى الخير . أمامها تنفتح الحواجز وتنخفض الجبال وتمتلئ الوديان وتتحول

المهاوى إلى طريق واسعة ممهدة ، فلا سبيل إلى ايذاء نفس مستسلمة للّه ، ولا إلى ايقاع تلك التى تسير متوكئة على ذراع يسوع .

يا نفسى ! ابذلى ذاتك للّه ، واثبتى فى محبته ، انسى ذاتك فإن اللّه صالح وحكيم وقدير . ألقى على الرب همك وهو يعولك (١) .

## المقالة الثالثة

### عمل الله فى النفس ملئ بالأسرار

ربى ! اننى لك ، وأسر بأن أحسب ذاتى كولد صغير بين ذراعيك . وأضع فى قلبك الأبوى همومى كلها .

اريد أن أتفانى فى التأمل بقدرتك الإلهية وفى ضعفى المتناهى . فهذه الفكرة تحررنى من أنانيتى ومن اهتماماتى ، وتجعل فى نفسى حرية مقدسة وعزة بنوية .

يا نفس ! انكِ فى عمل تقديسك لا تستطيعين شيئاً إلا باللّه . فالنعمة التى هى صميم كيانك الفائق الطبيعة ، ليست إلا عطية من اللّه ، وهى تفوق مدى إدراكك .

إن فعل النعمة خفى كالنبع الذى تصدر منه : النعمة تأتى وتذهب وأنت تجهلين أنها قد مرت بك . انها تتغلغل

---

(١) مز ٤٥ : ٢٣ .

فى ملكاتك . لكن عملها يبقى سرياً . فعل النعمة تارة يهدر كالسيل ويصب فى النفس لجج نور ومحبة : « ومن نهر لذاتك تسقيهم (١) » ، فتصبح النفس مغمورة به فتصرخ مع القديس فرنسوا كزافييه : « حسبى يا سيد ، حسبى ! فما عدت قادرة على احتمال خيراتك » . وطوراً تجرى النعمة فى النفس كالماء فى ساقية هادئة ، فتسقى القوى وتثلج الحواس وتروى الأفعال ، فينمو كل شئ ويتوسع ويزدهر بندى مفعولها . وكالحقل الخصب تعطى النفس لله غلة وافرة .

وأحياناً يكون فعل النعمة قاصفاً كدوى الأمواج فى بحر مضطرب : فيروع قائد المئة أمام الصليب ، ويجمد حراس المسيح فزعاً ، ويطرح بولس أرضاً على طريق دمشق ، ويخضع الجماهير الآتية لسماع وعظ بطرس الرسول .

وأحياناً أخرى تكون نغمته لطيفة كالنسيم فتمر مداعبة النفوس وتلاطفها وترفعها وتحملها معها إلى أجواء عليا ، فتحس النفس أنها فى الرضى والسرور وقوة العزيمة ؛ وتغدو وكأن حضن الله قد أصبح لها مقاماً عادياً ومضجعاً لراحتها . ولكن هذه الرؤيا السعيدة لا

---

(١) مز ٣٥ : ٩ .

تدوم ، إذ لا تلبث أن تتجهم السماء وتتلبد الغيوم ويتوارى وجه اللّه الضحوك فتبقى النفس وحدها بلا نشاط ولا مرشد : فتثور الأهواء وتصدمها الحوادث ويضطهدها الناس . أيها السيد أين أنت ؟ أتراك تترك السفينة الضعيفة تغرق ؟ - كلا . إنك قريب ، تسهر وتقوى الإيمان ، توطد الرجاء ، وتضرم المحبة ، ولكن بطريقتك يا اللّه . يا لفعل اللّه ! من يستطيع أن يكشف أسرارك ، من يستطيع أن يتتبعك في سيرك الجبار انك تطوف الكون وتدوس بقدميك الجبال ، وتقطع الصحارى فتشعر العشبة الصغيرة بمرورك . انك حيثما تمر تحيي وتخفض وترفع . فمن ذا يكشفك لأعيننا وأنت تستعمل المخلوقات كحجاب ، وتستتر وراء أخس المظاهر . كاستتارك وراء أرفعها . أيها الفعل الإلهي ، من يستطيع الافتخار بالنفاذ إلى سرك وبادراكك ويحجزك في أشكال محسوسة أو بتنظيم سيرك ، فأنت تارة نبعٍ متدفق ، وطوراً سيل سريع ، أو نهر صاخب وبحر عميق .

يا نفسي ، لا تحاولي أن تسبري أعماق السر الإلهي . فليس لك أن تعرفي فعل اللّه وتحلّليه . واجبك يقتصر على عدم معاكسة هذا الفعل الإلهي ، وأن تفتحي عندما يطرق بابك ، وأن تستقبليه بمحبة مهما كان نوع التنكر الذي يظهر فيه . إن اللّه قادر على كل شئ وهو يقدسك

فاستسلمي له ، أحبي إلهك وباركي في كل وقت اسمه القدوس .

## المقالة الرابعة

### إن الله يصنع العجائب في النفس المستسلمة له

عندما تستسلم نفس لله بلا تحفظ ، متخلية عن قيادة ذاتها ومرتمية في أحضانه ، يرى الله ذاته ملتزماً بأن يتعهدها هو نفسه ومنذئذ تشرع قدرته في العمل لتبلغها الكمال .

كل خليقة طيّعة بين يدى الله ، فهو قادر أن يجعل من القلب القاسي قلباً ملائكياً . بدونه لا تنفع الكفاءات الطبيعية شيئاً ، وبه تتحول النقائص إلى فضائل . بدونه ينفخ العلم ويهلك ، وبه يتبدّد الجهل أمام المعرفة .

إن قطرة الندى وذرة الغبار والحشرة المخبأة تحت العشب تثير أمام العالم مشاكل لا سبيل إلى حلها . ملايين الميكروبات التي تعج بها قطرة الماء ، تملأ عقله ذهولاً ، كما تذهله ملايين العوالم التي تتحرك في رحاب السماوات . الأرض والبحر ممتلئان بالعجائب . والانسان نفسه هو أعظم الأسرار : مَن يستطيع تفسير عمل حواسه وملكاته ؟ وميول قلبه ونزعاته ؟ من تراه سبر غور طبيعة النفس ، تلك الروح المتصلة بالمادة ؟

وكلما ارتقينا فى سلّم الكائنات كثرت العجائب واكتنفت الأسرار عقل الانسان وتحدثه . وما عسانا نقول إذا ما تخطينا عتبة العالم الفائق الطبيعة ؟ وماذا نقول خصوصاً عندما يكشف أمامنا عالم الأرواح محاسنه ؟

عجيب اللّه فى قديسيه ! انه يعمل في كل نفس تنقاد له وكأنها وحيدة فى العالم ، ويستعمل فى تجميلها قدرته اللامتناهية ، وينتقى لها أجمل الحلل .

كل نفس عالم جديد من العجائب : فإن اللّه لا يصنع نسخاً لأعماله ، وليس بين تحفه واحدة لا تختلف عن الأخرى بل كل « نجم يمتاز عن نجم آخر بالمجد » (١) . واللّه يحب أن يكثر عجائبه ، فهو يشبعها بسخاء فى عالم النفوس حيث لا يظهر شئ فوق القياس فى الفن أو فى الجمال . ولم يمسك اللّه يده فى توزيع نعمته ؟ أليس هو اللّه القدير ؟ أو ليست النفوس المستقيمة بنات له يحبهن محبة الحنان ؟

يا نفسى ! إنك لتجهلين الطريقة الرائعة التى بها يدرجك اللّه في الكمال . أنت لا ترين فى وجودك إلا تتابعاً رتيباً لأعمال لا طائل تحتها وتضحيات ومشاغل تافهة . فبهذه الطريقة يصور اللّه فيك صورته الكريمة . تميلين

---

(١) ١ كور ١٥ : ٤١ .

إلى الصلبان الكبيرة ، وإلى أعمال البطولة وتسعين لتبذلى حياتك فى سبيل ارضاء اللّه ، أما هو فلا يرتضى هذه الطريقة.إنه لا يريد أن تتقدسى الآن ، بالأمانة أو باضطهاد الأشرار لك ، بل بالعديد من أعمال الحياة اليومية التى تعينها لك الطاعة . فعندما تهملين شيئاً من فرائضك المقدسة أو واجباً يسيراً من واجبات حالتك الحاضرة ، قد يكون اللّه مهتماً باعطائك مسحة من جمال خاص ، فعدم انصياعك يخالف عمله هذا .

تظنين أنك تساعدينه عندما تستنبطين طرائق جديدة للتقديس فتنقّبين فى سيّر القديسين وتقرئين الكتب الروحية بنهم . ومع ذلك فليس هذا ما يقدسك ، بل بذل ذاتك فى كل آن بمحبة كريمة .

يا نفسى ! لا تبحثى عن القداسة بعيداً عنك فهى بك من كل جانب الخلائق كلها تأتيك بها ، حوادث الحياة جميعاً ملأى بها . ان ما يبتغيه اللّه منك يبلغ إليك فى كل لحظة بواجباتك اليومية ، وبمعزل عن هذا الواجب اليومى ليس لك قداسة ولا سعادة . فاقبلى ارادة اللّه مهما كانت الظواهر التى تستتر بها ، تقبّليها فخورة وافتحى لها باب قلبك على مصراعيه لأنها رسول اللّه إليك . قد تكون حاشية هذا الرسول حقيرة فى أعين الناس ، فلا تأبهى بذلك ، فإن اللّه هو الذى يعبر . ما يأتيك به هذا الرسول

قد يظهر لك قليل الأهمية ، ولعله معاكس لتفكيرك أو مناقض . فلا تكترثي لذلك ، ان هذا الآتى باسم الرب هو رسول اللّه ، ابن داود . فاحمديه ، وافرشي ثيابك أمامه وأعبديه واهتفي مع القلوب البسيطة المستقيمة : « هوشعنا لابن داود ، مبارك الآتي باسم الرب » (١) .

## المقالة الخامسة

### إن كلمة الله وحده هو مثال قداسة النفس

إن كلمة اللّه هو المثال الذى يجب على الخلائق كلها أن تبلغ كمالها بالاحتذاء به ، كل نفس تحيا منذ الأزل فى هذا العقل الإلهى ، بجمالها الخاص وسمتها الشخصية .

غير أن هذا المثال يسمو طبيعتنا البشرية سمواً لا حد له ، لذلك جعله اللّه مناسباً لضعفنا فتجسد ابن اللّه وصار باكورة الخلائق كلها . ونحن قد سبق للّه فحدد أن نكون مشابهين لصورة ابن اللّه .

فالإله المتجسد ، يسوع المسيح ، هو المثال الإلهى المتأنس الذى يجب أن نقدس ذواتنا وفقاً لصورته .

إن يسوع كرسّام ماهر ، عنده كل لون وكل ريشة . وبما أنه سيد الأزمان ، فهو يستخدم الزمن كما يشاء ،

---

(١)متى ٢١ : ٢٩ .

فيطيل السنين ، إن مسّت الحاجة ، ليتمم عمله . وهذا العمل هو وحده يعرفه ، وهو وحده يستطيع أن ينفذه ، وهو لا محالة متممه ، ما لم يعطل الانسان فعله .

ترين ، يا نفسى ، إن من الحكمة أن تستسلمى لسيدك . فماذا تعرفين عن التصميم الإلهى ؟ ماذا ينفعك أن تفحصى العمل الإلهى بفضول وأن تحلليه وتبدى فيه حكمك وخصوصاً أن تشجبيه ؟ ألا فاقبليه بحب ودعى الله يكفيك كما يشاء .

وماذا تنفعنا معرفة أعمال اللّه إن لم تقدنا إلى محبته ؟ فالنفس لا تتقدم فى الكمال بفعل العقل وحده وإنما بفعل الإرادة والقلب أيضاً . لو أتيح لى أن أتأمل فى السماء كل تحف الفنان الإلهى ، ولو عرفت بالتفصيل ما خفى من العجائب فى سيرة كل قديس ، ولو ميزت فيهم فعل الروح القدس العجيب فماذا تنفعنى هذه المعرفة إن لم أقبل أنا الصور التى طبعها فىّ الفنان الإلهى ؟ إن الأرض لا ينقصها العلم ، بمقدار ما تنقصها المحبة والطاعة والاستسلام للعمل الإلهى .

كفى يا نفسى عن القلق بشأن تقديسك . كفى عن البحث بتحرق عن وسائل تقدمك فى الفضيلة . لقد هيأها الله منذ الأزل وهو يقدمها لك الآن فى كل لحظة من

أيامك . تلك هى القداسة فى اللحظة الحاضرة : ذلك هو بذل ذاتك المحدد فى كل فعل وفى كل الم من الامك اليومية . وأما الباقى فلا يخصك ولا يمكن إلا ان يضر بك .

أه ! ما أقل تقدير بساطة النفس التى تستسلم هكذا لله ! أيتها البساطة انك تظهرين كجهل وغباوة . ولكنك فى الحقيقة مهارة وحكمة إلهية . فسيرى أيتها النفس البسيطة سيرى ولا تقفى أبداً ، فمعك دليل أمين .

بوسع كل النفوس أن تصل إلى قداسة سامية إذا سلكت هذه الطريق . وإذا كان القديسون على الأرض فليس الذنب فيه على الله بل على النفوس عينها .

## المقالة السادسة

### يسوع وحده يعلم المقام الذى تحتله النفس فى جسده السرى

يا يسوع ! أنت مركز الكون . كل شئ يدور فى فلكك ، كل شئ يتجه إليك . أنت مصدر كل حقيقة ، ومنبع كل محبة ومثال كل جمال .

أيها الإله المتجسد ! انك تجمع فى ذاتك الخالق والمولود ، المحدود ومن لا حد له ، أيها المخلص ، انك مبدع عالم النعمة الذى يصل بين نظام الطبيعة ونظام المجد .

فيك تجد كل العلوم وحدتها ، وكل الفضائل مثالها ، وكل الفنون كمالها . فيك تفسير الوقائع الهامة فى تاريخ الشعوب أنت وحدك توضح غوامض تتابع الممالك ، والانقلابات والثورات والحروب. أنت وحدك تستطيع حل المشاكل التى تقلق قلب الانسان . بك يصبح للألم معنى وللرجاء أساس ولتوقنا إلى السعادة غاية .

فانت يا يسوع أنت موحد القلوب ! إنك تؤلف مع كل النفوس البارة جسداً سرياً واحداً أنت راسه وأنا أحد أعضائه .

لقد اختارنى « كلمة الله » منذ الأزل لأكون عضواً فى هذا الجسد السرى راى وأراد المقام المعين الذى أشغله والعمل الذى أتممه فيه . انه عين الأمراض التى ستعترى كيانى الروحى وما قد يلحق به من الأوهان ، ووصف الأدوية الخاصة التى سيستعملها للتغلب على هذه العلل .

لم يفلت من عنايته الإلهية أمر واحد مما يخصنى . وما صنعه لأجلى ، يصنعه أيضاً لأجل كل من المؤمنين لأنهم جميعاً أعضاء فى جسده . إن الراس الإلهى يعتنى بكل واحد كما لو كان وحيداً فى العالم . يعيَن لكل واحد مكانه والمهمة التى يقوم بها ، ويساعد ويرتب ويتدارك

ويشفي بحسب حاجة كل واحد .

فما أحكم أن يترك الراس الإلهي ليعمل على هواه ، وأن يلزم المرء وحده ويتمم واجباته بأمانة ، ويخضع لفعل يسوع ويتقبل نعمه !

وا أسفاه كم حاولت أن أخرج من نطاق هذا الفعل الإلهي ، وأن أعين لنفسي المهمة التي أقوم بها وأن أرسم حركاتي ، وأنتقي وظائفي ، فأتعدى هكذا على قائدي الإلهي .

يا نفسي ! استسلمي من الآن فصاعداً ليسوع ، وتخلي عن إرادتك . إنك عمياء ولا تعرفين حتى المقام الصغير الذي تشغلينه في جسد المسيح . فإذا تصرفت بحسب رغبتك وتبعت هواك تعاكسين فعل يسوع .

يا يسوع أبعد عني هذا الشقاء . إن قلبي يطلبك بلا انقطاع يروم أن يفنى فيك ، وأن يحيا تلك الحياة المستترة (مع المسيح ) في الله . كما تغرز عشبة الحقل المتواضعة جذورها في الأرض كذلك أنا أنبت جذوري في قلبك الأقدس أيها المعلم الصالح وكما تتعلق النحلة الصغيرة بالزهرة ، هكذا أنا أتعلق بك يا زهرة يسى الإلهية . إنني أغوص في كأسك وارتوي منه طهراً ومحبة . الست ناصعاً كالزنبق وأحمر قانياً كالورد ؟ .... الا تقطر شفتاك عسلاً صافياً ؟

ما أجمل هذه الحياة التى ساحياها بيسوع ! انه يأخذ على عاتقه أن يقدسنى وأنا أعاهده بأن أحبه .

أيتها الأم الحنون العذراء ، حوّلى عينى وقلبى عن كل مغريات الأرض . إحمليني بين ذراعيك يا مركبة اسرائيل الإلهية . فعندها أشعر بأننا ندخل فى اجواء أرفع ، إلى عالم كله نور وصفاء .

## المقالة السابعة

## إن الروح القدس ينوع فعله كما يشاء في النفوس المستسلمة له

بذل اللّه ذاته للنفس وبذل النفس ذاتها للّه : ذلك هو الكمال . وهذا البذل يتم بواسطة يسوع . فغاية حياتنا على هذه الأرض ان نولد بيسوع ، وأن نتقوى فيه ، وأن نبلغ فيه كمال نمونا الروحى .

ولكن ، كيف يتم هذا النمو ؟ – اننا نولد وننمو فى يسوع بالنعمة ، وهذه يفيضها الروح القدس فى نفوسنا . إن جسد يسوع السرى ، اى الكنيسة يشبه شجرة ، والماء الذى ينميها هو النعمة .

هذه الشجرة الضعيفة التى غرست على الجلجلة فى الأرض التى سقاها يسوع بدمه ، قد نمت وتفرعت . لقد تأصلت في الأرض الوثنية ، طيلة ثلاثة قرون كلها

اضطهاد ومدت جذوراً عميقة ، ولما هدأت ؟ ريح العاصفة بسطت أمام عيون العالم غصونها القوية المثقلة بالأوراق والأزهار والثمار .

إن يسوع هو جذع هذه الشجرة العظيمة التى تظلل جميع شعوب الأرض وكل مؤمن هو أحد أغصانها . والله أخذ على عاتقه أن يحملها بالثمار : « أبى هو الكرّام » (١) . هو يسهر على جمالها وخصبها ويشذبها عند الأوان ، ويقطف فى الأوان المناسب الثمار الناضجة .

أما النمو فهو عمل الروح القدس الذى هو محبة : وهذه المحبة الإلهية هى حياة الله نفسها ، هى طبيعته : الله محبة (٢) .

هذه المحبة قد انحدرت من الله إلى الخليقة العاقلة ، فأفاضها الروح القدس ، بلا حساب ، فى المسيح جذع شجرة الكنيسة ، وهو يتابع عمله فيغذى بتلك العصارة عينها كل الفروع التى ينميها حتى آخر الأزمان . هذه الحياة الإلهية ، الواحدة فى حد ذاتها ، متنوعة إلى ما لا حد له فى مفاعيلها . فمن خواصها أنها لا تعطى ثمرتين بطعم واحد وعطر واحد ، بل تنوع عملها إلى مالا نهاية له.

---

(١) يو ١٥ : ١ .     (٢) يو ٤ : ٨ .

إن النفوس التي قدسها الروح القدس ، منذ بدء الأزمنة ، كلها جميلة في نوعها . بعضها يتميز بطهارته الملائكية ونقاوته البتولية . وبعضها الآخر يتميز بتقشفه . وبعض هذه النفوس تقضي حياته في مناجاة قلبية هادئة مع يسوع ، وغيرها طافت الأرض والبحار سعياً وراء النفوس ، أمثال بولس الرسول .

البعض ذابوا بمحبة يسوع المصلوب وغيرهم أكلتهم غيرتهم على مجد الله .

كل عجائب النعمة هذه المتنوعة يفعلها روح الله الواحد . وفعل الروح هذا يتم برفق وهدوء . فتصعد الحياة الإلهية باستمرار وتسرى بسكون من الجذور إلى الجذع ومن الجذع إلى الأغصان وتعود من الأغصان إلى الجذور ، ولا تقف إلا أمام الحواجز التي توضع لها . وفي بعض مراحل الحياة ، يقوى جريها : فيكون حينئذ ربيع الحياة الروحية وصيفها ، وفي بعضها الآخر تظهر وكأنها قد جفت ، فتختفي عذوبة النعمة وتفتر المشاعر الحلوة وتخمد الانطلاقات النشيطة : هذا هو الخريف الحزين والشتاء الطويل . هذا وقت التجربة الذي تجمع فيه النفس في داخلها ، في الارادة ، كل قواها الحيوية فتنقيها وتضاعفها وتتهيأ للانطلاق في حياة جديدة أشد نشاطاً وأكثر سمواً . طوبى للنفوس الطيعة التي بذلت ذاتها لله ،

انها تفهم أن مهمتها تنحصر في افساح المجال لروح المحبة يعمل فيها !

## المقالة الثامنة

### كل شئ يساعد علي تقدم النفس البسيطة ، بارشاد الروح القدس

يا روح الله القدوس ! انك تمسك بيدي لتقودني راساً إلى إلهي . فاريد ان اكون طيعاً وان أنسى ذاتي واستسلم لارشادك ، فأنا أرى في هذا أسمى درجات الحكمة .

إن المسافر الذي يجهل خريطة البلاد التي يجول فيها ، لا يركن إلى معارفه الخاصة بل يستصحب دليلاً أميناً . وأنا ، ماذا اعرف عن بلاد القداسة ؟ كل شئ فيها غريب عني ، السكان والشرائع والعادات وطرائق الحياة ، حتى اللغة الدارجة فيها . فما هي الوسيلة حتى لا اضل عن الطريق ؟

ثم إن لي أعداء يهمهم تضليلي ، وهم كثيرون وماكرون وبعضهم قد تسلل إلى صميم داخلي فصار جزءاً مني . يتحالفون كلهم عليّ ، ولا يتركون لي راحة ما لم يروني قد وقعت في الهاوية فكيف أنجو من هذه الفخاخ الكثيرة ؟ ليت الطريق واسعة وممهدة ! لكنها ليست إلا مسلكاً ضيقاً يضيع احياناً في جبال عسرة المسلك ،

واحياناً يغور فى مستنقعات موحلة : ومع ذلك لابد من السير الدائم ، فالتراجع يعنى الهلاك المحقق .

ما أكبر حاجتي إلى الا أركن إلى ذاتى بل أن أتعلق بدليلى . هذا الدليل المرشد هو الروح القدس ، المعزى فى الضعف والأحزان ، العاضد فى مصاعب الطريق ، والمنير فى الظلام .

انه يجعل من تقديس النفوس شغله الوحيد . إن عنايته تسوس العالم تتصرف بالتيجان ، وتعطى السلطة وتزيلها وذلك كله يتم بحسب مشيئته ولأجل خير النفوس . كثيراً ما نسائل ذواتنا ، لم هذه الثورات والحروب والأوبئة والكوارث الاجتماعية الكبرى ؟ لم نضطهد وتذل البلدان الضعيفة ، وينتصر العنف ؟ لم هذه الكوارث العامة ، وأحزان العائلات ، والمجازر البشرية ، ودموع الأمهات ؟

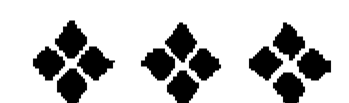
ما أقصر مدى نظر العقل البشرى ؟ هناك نخبة من النفوس ، وقد تكون كثيرة . تنقيها التجارب وتقدسها . هنالك نفوس لن تخلص أبداً لولا هذه التجارب .

فيا حكماء هذا الدهر وعظماءه ! أنتم تظنون أنفسكم سادة محكمين فى مقادير هذا العالم ، تفرضون عليه السلم أو الحرب لكن اللّه لا يأبه لقدرتكم ، فهى بنت يوم واحد .

ليس مرشدى متفانياً فى خدمة نفسى ومصمماً على تقديسها فقط ، بل أنه يملك أيضاً كل الوسائل لتتميم ذلك ويختص بذاته وحده انتقاءها . فبهديه تصبح كل الطرق حسنة وتقود إلى الغاية . انه يسر بترك النفس جاهلة مآربه ، فيقودها بين المهاوى ويصعدها الجبال الوعرة .

بيد أن النفس التى أسلمت له ذاتها لا تفقد أبداً شجاعتها لقد تعلمت أن تنسى ذاتها وأن تتكل على معلمها . فتنقشع الظلمات بعد قليل ويعود الهواء ، ويسير الدليل الإلهى من جديد إلى جانبها : لقد أراد أن يعلمها كيف تبذل ذاتها بلا تحفظ ، له وحده أن يعنى خصوصاً بتقديسها .

لنسر معاً أيها الروح القدس . اننى أستسلم لك . لن أخاف ولن أتردد من بعد ، بل أرمى ذاتى بلا تحفظ فى حضن عنايتك فاهدنى وقدسنى ، أما مهمتى فأن أمحى ، أن أختفى .



# الفصل الثالث

## من السهل أن نبذل ذاتنا لله

## المقالة الأولى

### تخطئ النفس إذ تبالغ في تصور مصاعب الحياة الروحية

إن اللّه هو السيد المطلق على كل شئ . هو مبدأ كياني وغاية وجودى ، والمثال الإلهى لحياتى ، وله علىّ سلطان مطلق وشامل .

اننى لأجْزع أمام هذا الواجب الخطير : أن اكون بكاملى للّه . لا استطيع ان أقصى عنه اى فعل ولا اية برهة ، من دون ان اكون مختلساً .

كيف يمكن أن توقف له حياة بكاملها ، مليئة بالوف الأعمال اليومية ؟ فالعقل يولد افكاراً لا حصر لها ، والقلب يولد عواطف لا عد لها ، فكيف يمكن التسلط على كل هذا العالم الداخلى ؟

إن الأهواء العنيفة أو غير المروضة ، تواصل عملها بلا انقطاع . والحواس تتحمل بصعوبة نير الارادة . والمخيلة تظن نفسها سيدة البيت فتقلب النظام الداخلى ، والعقل تخدعه الحواس وتفويه ظواهر الحقيقة ، والارادة نفسها ضعيفة ترتبط بالعدو بعلائق سرية .

وكيف يمكن أن توقف لله حياة بكاملها عندما تتكاثر العقبات الخارجية حول النفس ؟ كثيرون هم أعداء الله وأعداء التقوى ، واللامبالون والجبناء أكثر أيضاً : إن الحياء البشرى هو سيد العالم وقد حولت عن الله ابتسامة أو سخرية أو كلمة قارصة نفوساً أكثر من التى حولها الشيطان نفسه .

وفضلاً عن ذلك ، كيف يمكن أن يشعر المرء بأنه مسلح ضد اغراء العالم الحالى وضد مغريات الشر والأمثلة السيئة والمبادئ المفسدة ؟ آه ! ما أصدق ما قيل : « إن جميع الذين يريدون أن يحيوا بالتقوى فى المسيح يسوع يضطهدون (١) .

ولو أن حياة البذل لله هذه لا تدوم إلا بعض الوقت لهان الأمر ، لكنها يجب أن تدوم حتى النفس الأخير ، بلا هوادة ولا استرخاء ولا تخفيف ، لأن كل شئ هو لله ويجب أن يكون له .

كيف يمكن تحمل صراع دائم مثل هذا ، ضد ذاتنا وضد العوائق الخارجية وضد الأعداء على اختلاف أنواعهم ؟ إن النفس تتعب آخر الأمر ، والقلب يمل ، والارادة تضعف والعادة الرتيبة تحل محل الحرارة .

---

(١) ٢ تيمو ٣ : ١٢ .

وداعاً أيتها القداسة فإنك لصعبة جداً ! انه لصعب قاس ، أيها السيد ، الكلام الذى يدعونى إلى مثل هذه الحياة ، فمن يستطيع سماعه ؟

قاتمة صورة الحياة هذه ، فهل تريدين يا نفسى أنت أيضاً أن تذهبي ولا تعودى تتبعين المخلص الذى يدعوك إلى اتباعه ؟

يا يسوع ! إلى من أذهب ؟ أليست كلمات الحياة الأبدية عندك ؟ لقد قلت : أن نيرى هيّن وحملى خفيف (١). « فتعالوا إلىّ يا جميع المتعبين وثقيلى الأحمال وأنا أريحكم » (٢) إذن ليس اتباعك صعباً جداً . أنا إنما أخدع عندما تصور لى القداسة كشئ مستحيل على ضعفى .

لقد أعطيت خلائقك كلها ما هو ضرورى لها وما هو كمالى ولذا لا ينقصها شئ مما هو ضرورى لبلوغ غايتها فهل أنا وحدى قليل الحظ حتى أننى لا أملك وسائل التقديس غزيرة ؟ إنى أرى أشد الأشياء لزوماً للوجود متوفرة لدى الجميع . فما من أحد تعوزه الماء والهواء والأرض . وحياتى الروحية ، التى هى فى عينيك أثمن بكثير من العيش المادى . هل تعوزنا المقومات الضرورية؟ لا أستطيع أن أتصور ذلك .

---

(١) مت ١١ : ٣٠ .　　(٢) مت ١١ : ٣٨ .

فيا يسوع ! لا أريد أن استصعب الكمال هذا ، بل أريد أن أدنو إليك وأجلب معى نفوساً كثيرة . فعلمنا يا يسوع ألا نزحم طريقنا بعقبات خيالية .

أرنا يا رب الطريق الموصلة إليك ، وأمسك بيدنا . اننا لن نتركك ، وسنمضى معك حتى قمة الجبل . وهنالك نستريح فيك يا يسوع ، ونفرح مع جوقات من نفوس كريمة سبقتنا .

## المقالة الثانية

## يكفي كل يوم همه

إن بذل الذات ينحصر فى واجب اللحظة الحاضرة . إن تقديس حياة بكاملها يعنى تكريس اللحظة الحاضرة لله . فالماضى قد فات ، والمستقبل لم يأت بعد ، والحاضر وحده واقع وهو يحمل معه واجباً .

ما أبعد عن المنطق أن يرهق المرء فكره بتصور عديد الأفعال التى يرفعها لله والتضحيات تجيد بلا انقطاع والمصاعب الكثيرة الواجب التغلب عليها . ذلك كله نظرة تجريدية للقداسة من خلال زجاج المخيلة المكبر. أما الواقع فهو فعل فرد يقدم لله ، وواجب يتمم ، وصليب واحد يحمل ، وحزن يحتمل ، وأحياناً هى استراحة تؤخذ تحت نظر الله .

إن حصر القداسة في هذا الواجب الحاضر الوحيد فقط يعني تسهيلها ومجاراة مقاصد الله الذى لم يشأ أن يثقل عاتقنا بحمل لا يمكن رفعه . يقول لنا الرب : عيشوا يوماً فيوماً ، لا تهتموا للغد ، فالغد يهتم بذاته ، « يكفى كل يوم همه » (١) .

انه ليخدع نفسه كثيراً ويجعل حياته قاسية من يكدس بواسطة المخيلة ، كل الحجارة المبعثرة على الطريق الواحد قطعها ، ويركمها جبالاً تمنع المرور ، ثم يقول بحزن ، وقد عقد يديه : « ما الفائدة من بدء المسير ، فلن أستطيع التغلب على مثل هذه العقبات . أما المسافر الحكيم فيعرف أنه سيصادف حجارة طول الطريق ، لكنه يعرف أيضاً أن قليلاً من الجهد يمكنه من المرور من غير أن يصطدم بواحدة منها .

إن المخيلة تؤدى للنفوس خدمات سيئة : فإنها تسلبها نصف السعادة التى تحق لها ، وتسمم البقية . هذه المخيلة تذكر النفس بآلام الماضى وتحييها فيها فتخدعها وتضاعف مرارتها . كذلك المستقبل الذى لا تملكه النفوس بعد ، يبعث فيها مخاوف خيالية وآمالاً لا تحقق وتكهنات بعيدة عن الصواب .

---

(١) مت ٦ : ٣٤ .

ألم يقل يسوع بحق « كونوا كالأطفال (١) » ؟ فإن الطفل لا يفكر بالماضي وهو أقل تفكيراً بالمستقبل ، حسبه أنه بقرب أمه ، يمرح أمام عينيها ، ويعرف جيداً أنها تعنى به .

يا نفسي ، عودى طفلة . دعى كل اهتمام بالماضى وكل خوف أو أمل قلق فى المستقبل ، أبقى بقرب اللّه فى الحاضر ، فتصبحى سعيدة وهانئة ، وتصرفى كل قوة ارادتك وكل انتباه فكرك إلى واجبك الحاضر .

اللحظة الحاضرة وحدها جديرة باهتمامك فهى تحوى كنوزاً ثمينة . بوسعك فى كل لحظة أن تكنزى لك كنوزاً للسماء ، لأن كل لحظة تحوى اللّه .

ما أشد ضلال أكثر النفوس ! فإنها تطلب القداسة خارجاً عن ذاتها ، تجول فى الكون وتغوص فى الماضى وتتفحص المستقبل ، بينما الكمال بقربها ، فى اللحظة الحاضرة ، بما فيه من خير وغنى . بقربها بحر من القداسة تستطيع الغوص فيه دائماً .

## المقالة الثالثة

### علي النفس المستسلمة لله أن تتجنب الهموم الباطلة

إن اللّه لا يطلب من النفس سوى تتميم الواجب

---

(١) مت ١٨ : ٣ .

الحاضر ، وينهاها عن كل فكرة قلقة تتعلق بالماضى وعن كل اهتمام بالمستقبل . وهكذا ينحصر اهتمام النفس فى التعرف على ارادة اللّه كلما بدت وفى التقيد بتلك الارادة .

إن الله يأخذ بيدى ، ويسير بجانبى ، فليس علىّ سوى أن أواكبه ، من غير ما تطلع إلى الوراء ، ولا نظر إلى المستقبل بعين قلقة ، فلا أسير أسرع ولا ابطأ من مرشدى الإلهى : « أنت أخذت بيمينى وبمشورتك تهدينى » (١) وهكذا يصحبنى حتى نهاية حياتى .

يجب على النفس إذن أن تطرح عنها كل قلق وأن تجد فى تمييز مشيئة اللّه فى كل لحظة . حتى إذا عرفتها تستسلم للّه بمحبة وامتثال .

ما أكثر ما يلذ للّه تسهيل نصيبنا فى عمل التقديس ومع ذلك تعرف بعض النفوس كيف تخلق لذاتها صعوبات فى هذا الأمر البسيط . انها مستعدة لتتميم المشيئة الإلهية عندما تراها ، ولكن كيف السبيل إلى معرفتها ؟ وهكذا يتعلق تفكيرها ، تعلقاً محموماً ، بموضوع اللحظة الحاضرة ويتفحصه ، ويقلبه ، ويفحصه ، ويزنه ليتحقق من أنه يحوى المشيئة

---

(١) مز ٧٢ : ٢٤ .

الإلهيـة . وكلمـا ازداد قلق هـذه النفـوس إزداد ارتيـابهـا ، وكلمـا ازداد ارتيابها ، إزدادت رغبة فى تفحص الأمور .

ايتـها النفس المـوسوسـة المسكينة ، تعلمى أن تخـدمى الله فى سـلام وهدوء . إن واجب اللحظة الحـاضـرة يمتنع عن أن يكون واجباً عندما لا تعرفـينه ، فإن لم يدركه عقلك فهو ليس بالنسبة إليك مـشيئة الله . ولمثل هذا الفحص لا تلزمك جـهـود طـويلة ، إذ تكفى ثانية واحـدة يـكفى الوقت الذى يسـتـغـرقـه إلقـاء نظرة علـى الله ، وعندئـذ يملى الضمير الجواب . فإن كـان ايجابياً قبلته الارادة ، وإن كان سلبيـاً تخلت عنه ، وإن كان مـوضـوع شك وارتياب تركـته من غير أن تقلق . فالله عندما يريد أن يعلن لنا أمراً يفعل ذلك بوضـوح .

إن النفوس المسـكينة المعرضة للوسـاوس تضيع أحياناً وقتاً طـويلاً فى التساؤل عن أى فعل يرضى الله بالأكثر . هـل يجـب تكريس وقت الفراغ للقراءة أم التأمل ، للعمل اليـدوى أم للـدرس ؟ أيلذ لله أكثـر الغـوص فى الوحـدة أم التحـدث بالأشياء الروحـية أن يحيا المرء حـياة تأمـل أم أن يبذل ذاته في خدمة القريب ؟ .

أيتـها النفس المسـكينة ان هـذه أسئلة باطـلة : فليحلهـا لك معـرفك أو مرشـدك الروحى . لكن لا تتوقـفى عندهـا ، بل تممى مـا تفرضه عليك اللحظة الحاضـرة . فإن لم يكن

هناك شئ مرسوم فافعلى ما يبدو لك حسناً لأول وهلة ، ددعى جانباً كل فحص وكل قلق . فأول شئ يريده الله هو أن لا تضيع النفس وقتها أو هدوءها الداخلى .

## المقالة الرابعة

### إن الله يعلم بذاته النفس الحرة

إن النفس الأمينة على استيضاح المشيئة الإلهية فى كل لحظة بنظرة بسيطة ، تكتسب سهولة عجيبة فى تمييز واجبها فتنبهها غريزة سرية أن هذا العمل مُرضى لله وأن ذاك هو أقل إرضاء له . هذا التمييز الموحى هو ميزة النفس البسيطة ، فالله يحب التحدث إلى القلوب المستقيمة ، ويناجيها بآلاف الطرق العجيبة . انه يعمل فيها عادة بانفعالات سرية ، فتحس النفس بأن الله يكون مسروراً إن هى أقدمت على عمل ما أو قامت بتضحية معينة . وهكذا فهى تبذل ذاتها بلا تردد ولا فحص ، وتتمم مشيئة حبيبها . والله يقودها على هذا النحو فى كل مشاغلها .

ويدعو الله النفس احياناً لتكون اقرب إليه . وهى عندما تسمع هذه ادعوة ، تترك كل عمل لا ترسمه لها الطاعة وتسرع إلى قرب يسوع . انها تعرف أن المعلم الإلهى يروم محادثتها فى ذلك اليوم فى ألفة أشد ، وأن

يسر إليها أسراره الإلهية . لكن النفس لا تعرف أن تفسر هذه الغريزة الفائقة الطبيعة التى تدفعها ، بل تشعر فقط بتأثيرها وتعرف إنها آتية من الله .

إن سلوكها يظهر أحياناً غريباً ، لقليلى البصيرة ، فينعتها هؤلاء بقلة الفطنة بل بالتهور . أما هى فتدعهم يتحدثون بما يشاؤون وتواصل سيرها ، ساهرة على ألا تناقض أفعالها واجباتها الصريحة ، ولا اعلانات مشيئة اللّه الجليّة . وهى كلها آذان لسماع الصوت الداخلى الذى يدعوها ويملى عليها رغبات العلى . هذا الصوت هو كالنسيم العليل يلاطف عند مروره النفس التى تشعر بالتأثير الإلهى فتتهلل وتطيع فى الحال .

بالحقيقة ، كم يحتوى عالم اللّه من العجائب ! ما أعظم الأسرار التى يعملها اللّه فى النفس الخاضعة لفعله الدائم ! ما ألذ تلك المناجاة القلبية الدائمة ، والنفس قد تخلت عن كل اهتمام يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، لا تعيش إلا لهذه اللحظة الحاضرة ، متركزة كلها فى اللّه ومنتبهة لصوته ومستسلمة لعمله ! لو عرفت النفوس أن تكتفى بهذه الحاجة الوحيدة لكان اللّه يعمل فيها كلها أموراً عجيبة .

غير أن هذا يتطلب هجراً لعالم من الأفكار يملأ

الرأس ولرغائب ومخاوف لا عدد لها تختمر في داخل الكائن المرهف الشعور ، ولنزعات ، ولمودات ، ولتعلقات تكبل القلب وتتنازعه من كل جهة ، فتنهكه ، وتجففه ، وتنفره من أمور اللّه . ذلك يتطلب التخلي عن قيادة ذاتنا بحسب ارشادات فكرنا ، ثم أن نلقي على اللّه كل همومنا وان نطرح جانباً كل اعتبار يتعلق بكرامتنا ، وقصارى القول أن ننسى أنفسنا وأن نستسلم للّه في اللحظة الحاضرة .

إنه لمحزن أن نرى نفوساً كثيرة طيبة مدعوة لحياة الألفة مع يسوع يشغلها كثير من الأشياء الباطلة ، فتغدو مهتمة ، حزينة ، متضجرة ، قلقة ، لأنها لا تريد أن تحصر حياتها في اللحظة الحاضرة التي يعطيها اللّه أن تحياها .

ماذا يهمك من المستقبل أيتها النفوس البسيطة ، هذا المستقبل الذي يعرفه اللّه وحده ويستطيع وحده أن يهتم به ؟ ماذا يهمك من الماضي الذي لن تحيي ذكره من بعد ، والذي تغاضى اللّه عنه إن كان سيئاً ، وحفظه إن كان جيداً ؟ لم تهمك حوادث الحاضر التي تتعلق بالآخرين ولا تتعلق بك ؟ فليس هناك بالنسبة إليك سوى شئ واحد مهم : هذه اللحظة التي يرسمها اللّه لك . فقدسيها على قدر استطاعتك بحسب النعم التي يعطيها لك اللّه ،

وبحسب القوى الجسدية والأدبية التى أولاك إياها ، وبحسب المعرفة التى أحرزتها ثم البثي فى هدوء : فقد بلغت قداستك منذ هذه اللحظة .

اخلق فينا أيها الرب قلباً بسيطاً ومستقيماً . وأنت أيتها العذراء المباركة ، أشركينا فى نقاوتك التى لا عيب فيها ، وفى تجردك الشامل التام .

## المقالة الخامسة

### لكي نبذل ذاتنا لله ، حسبنا أن نحب

إن واجب تقديس الذات يتلخص ، فى نظر اللّه ، باتمام واجبات اللحظة الحاضرة . فمن ذا يستطيع الاعتقاد بأن فى هذا الطلب الإلهى بعض الغلو ؟ ليس تقديسنا عملاً صعباً على اللّه . هذه الواجبات مهما كانت بسيطة ، يجب ان تتمم فهل أن اتمامها أمر عسير علينا ؟

إن التقديس يعني بذل الذات للّه جسداً وروحاً ، واخضاع الحواس للعقل والعقل للارادة والارادة للّه ، وأن تضبط أهواءنا ، وأن نقاوم العادات السيئة ونتغلب عليها ، وأن نكبح الميول الشريرة ، وأن نصمد أمام تيار المبادئ الفاسدة وإغراءات العالم ، وقصارى القول أن نقاوم ، بلا هوادة ، أنفسنا والشيطان والعالم فهل هذه المهمة طفيفة ، وهل يمكن القول بأن بذل الذات أمر سهل ؟

إن ما يبدو حملاً ثقيلاً لاكتفانا قد خففه اللّه كثيراً ، إنّ ما يظهر معقداً فى عمل التقديس ، بسيط جداً لأن اللّه نفسه هو صانعه . إن ما يخيفنا بتعدده وتنوعه قد رده اللّه إلى وحدة عجيبة .

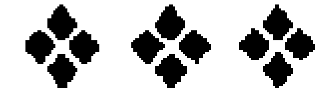
إن الآلة الانسانية هى من صنع عامل إلهى ، ولذا فهى كاملة بكل أجزائها . وقد وضع اللّه فى وسطها دولاباً رئيسياً هو الإرادة . وهذه تحرك سائر القوى وتوجهها بحسب مرتضاها . فالإرادة ، بما انها أكمل من أى تركيب أخر ، حرة فى حركاتها . يتلخص الإنسان كله فى الارادة والارادة تتلخص بدورها فى فعل واحد من أفعالها هو المحبة والإرادة تستطيع أن تشتهى ، وتخاف ، وترجو ، وتيأس وتكره ، وتفرح ، وتحزن ، وهذه الانفعالات كلها هى مظاهر فعل واحد أساسى هو المحبة . حياة الإرادة وحاجتها وميلها الذى لا يقاوم ، هو أن تحب . فإذا انتظمت المحبة . تكون الارادة كلها صالحة ، والانسان كله مقدساً . أما إذا اختلت المحبة فالارادة تكون كلها فاسدة . الانسان كله شريراً .

فتوجيه الحياة إلى اللّه يعنى إذن تنظيم المحبة . وعمل التقديس كله يتوقف على بذل القلب كله للّه . كان القديس

أوغسطينوس يقول : أحبب واصنع ما تشاء (١) لأنك إن أحببت اللّه فلن تعمل إلا أعمال المحبة هارباً من الشر الذى يهدمها ومبتعداً عن الأخطار التى تعرضها للضياع ، وهذا هو السبب الأساسى للوصية الوحيدة : « تحب الرب إلهك بكل قلبك .... وقريبك كنفسك » (٢) .

فعليك إذن ، يا نفسى ، لتتممى واجبك فى اللحظة الحاضرة ، أن تبذلى ذاتك للّه بمحبة ، وأن تسلمى إليه قلبك كله ، وبعد ذلك أن تتممى العمل الحاضر بارشاد هذه المحبة ، فتحتملى الصليب المفروض عليك وتبتعدى عن الشر الممنوع . ولئن كنت لم تفكرى باللّه فى هذه اللحظة عينها لتبذلى له قلبك ، فلا تخافى شيئاً لأنك بذلت له القلب منذ زمن طويل ولم تتراجعى .

فتقديس النفس يعني إذن بذل ذواتنا للّه في اللحظة الحاضرة بمحبة حارة ، والاستسلام له لإتمام مشيئته بحسب قوانا ومداركنا ، تاركين له أن يتصرف بخليقته كما يشاء ، ومسلمين إليه الماضى والمستقبل ، ومكلفين بتدارك كل شئ وترتيب كل شئ وإصلاح كل شئ .



---

(١) تعليقاً على ١ يو ٤ : ٧ .      (٢) متى ٢٢ : ٣٧ ، ٣٨ .

## المقالة السادسة

### حسبنا أن نريد المحبة لتكون لنا

ليس أجمل ولا أرهب من جيش منظم مؤلف من جنود شجعان ، يقودهم ضباط مدربون . إن قوة مثل هذا الجيش ملقاة بيد رجل واحد . فالرئيس يصدر الأوامر ، وصداها يتردد بين جميع الضباط حتى يبلغ أذن آخر جندى . إن ارادة واحدة تضبط إرادة ملايين الناس وفكراً واحداً يوجه عقولهم .

والانسان بملكاته المتنوعة وأهوائه وحواسه مع أفعالها وحركاتها وانفعالاتها التى لا عد لها ، يشبه جيشاً عظيماً . وفي داخله يسود ترتيب كامل للتنظيم والأمر . أما القائد الأعلى فهو الارادة .

تستطيع الارادة أن تملى أوامرها على كل اتباعها ، ولا يلزمها لذلك إلا فعل ارادى فينتقل أمرها حالاً حتى إلى أدنى الملكات وينفذ فإن كانت الإرادة أمينة لملكها يكون الجيش كله كذلك ، وإن خانت عهده فالجيش كله يقع فى يد العدو . ولكى تتمم الارادة واجبها لا يلزمها إلا أن تبقى فى وظيفتها : أن تكون إرادة ، أى أن تكون رئيساً حازماً يعرف ما عليه أن يفعل ويروم أن يطاع .

يا نفسى ! انك تجهلين القوة التى منحك إياها اللّه ،

ولم تدركى يوماً القدرة التى تملكين : فإن الله الذى أعطاك الإدارة لتتسلطى بها على سائر الملكات ، قد ألبسها الصفات اللازمة للحكم ، فلك أن تستخدميها وتوسعيها وتكمليها بالتمرين الدائم والصلاة الخاشعة . فلا تجزعى إذن من الصعوبات التى تعترضك ، بل اجعلى الارادة على رأس جيش الأهواء والعواطف والمشاعر والمخاوف والآمال والهموم التى تكون داخلك وتغذى فيه البلبلة ، وبعدئذ لا تهتمى بما أقلقك حتى الآن . لا تتبعى أفكارك ورغباتك وتصورات مخيلتك فى مداوراتها التى لا آخر لها. لا تخافى حركات الثورة التى تحاول اثارتها شهواتك الجامحة ولا تعيرى انتباهاً لصخبها ، إنها قد تعودت العبث ولا يمكن اخضاعها فى يوم واحد . لكن النظام سوف يسود من غير أن تشعرى بشرط أن تتركى للارادة كل سلطانها . ما أعظم أن يعيش المرء بإرادته . ما أبهاه لا يترك نفسه تنقاد للأهواء ، وتغيير المزاج ، ويحملها موج المخاوف والرغبات والمسرات ، وتتحكم بها انفعالات الساعة الحاضرة وإيحاءات الحواس والمبادئ الغريبة ! ما أجمل أن يبقى الانسان ثابتاً كالصخر بينما تزمجر عاصفة الشهوات ، ويهدد البحر الهائج بتبديد كل شئ .

هذه ، يا نفسى ، هى الحياة التى ستحيينها ،

فالانسان يتلخص فى ارادته والارادة تركز قدرتها فى فعل المحبة . فاحملى إلى إلهك ، فى كل لحظة . هذا الفعل المضطرم فتكونى قوية كالله نفسه .

## المقالة السابعة

### إن الله يقابل بذل النفس ، ببذل ذاته

تتجلى ارادة الله فى كل لحظة بشكل واجب لابد من اتمامه وشر يجب اجتنابه ، وصليب يفرض حمله ، والنفس تجيب فى كل آونة من يومها باثبات طاعتها وبذل ذاتها لله بشغف . فى هذا العمل الوحيد يلتقى ويتعانق الخالق والمخلوق فالنفس تستسلم بكاملها لله ، والله يعطى ذاته بدوره بلا تحفظ . كل حدث يهيب بالنفس إلى تجديد هذا الفعل ، وكل الم ينضحه من القلب كطيب ثمين . وفى كل مرة يجيب الله بمزيد من الحب والسخاء .

الا تحررى يا نفس من نطاقك الضيق واسكنى ذاتك فى الله فإن هذا الإله العظيم ، والمحيط الذى لا غور له ولا حدود ، يتنازل إلى أن يفيض هو بدوره ويخرج من ذاته ويملأك . الأقانيم الإلهية الثلاثة السامية تروم أن توطد فيك سكناها وتجعل فيك مقام محبتها .

نظرة واحدة من نظراتك يا نفسى قد خلبت قلب الله

ودفعته إلى النزول إليك . لقد تممت محبتك باتضاع وها ان السماء كلها تتوجه إليك ، وها هوذا اللّه نفسه لا يستريح حتى يبذل لك ذاته بوسعه أن ينتظر الحياة الآخرة ليغمرك بحبه . لكن محبته لا تعرف التأجيل .

يا إلهى إن من يراك فى هذه اللهفة يخيل إليه أنك بحاجة إلى محبتى . انك تنعم عندما تشعر بقلبى يدق بقرب قلبك ، وعندما تحدق بناظريك الإلهيين فى عينيّ ، وعندما تسمعني أناديك : يا أبى .

يا نفسى ، استسلمى لمحبة اللّه ولفيض نعمه . ان حياتك قائمة فى اللّه . إن الأقانيم الثلاثة فيك دوماً ، تهتم بك ، فابذلى ذاتك لها ، واستسلمى لارادتها ومحبتها .

إن الآب يخلقنى ويحفظنى ، والإبن يفتدينى وينقينى ، والروح القدس يقودنى ويقدسنى . الآب يحملنى بقدرته والإبن ينيرنى بحكمته ، والروح القدس يغنينى بصلاحه .

أيها الآب والإبن والروح القدس ، الثالوث المغبوط ، ينبوع الحياة والحق والمحبة ، كن ملكاً عليّ . إن كيانى الواهى يفيض حياة وارتياحاً عندما يركن إليك ، وظلامى يتبدد ، وقلبى الجامد يدفأ وينفرج . إن دهمتنى الوحدة فلن أخاف ، لأننى فى صحبة أحن اب وأحب أخ وأخلص رفيق ، وعندى ما اتحدث به معه طيلة قرون . إن داهمنى

الحزن أو غشى نفسى الشوق المفرط إلى السماء فلن أخاف ذلك ، لأن فىّ نبع سعادة ، لأن فىّ السماء فعلام أحسد الملائكة والقديسين ؟ بوسعى أن أحب اللّه إلى الغاية وبلا توقف : أليست المحبة هى السماء ؟

## المقالة الثامنة

### بذل الذات يحوي ممارسة كل الفضائل

إن بذل الذات يجتذب اللّه إلى النفس ويجتذب معه كل كنوز السماء . وهذا البذل عينه يسلم إلى اللّه الانسان كله نفسه وجسده ، وكل قواهما ، وكل أفعالهما دون استثناء . ومتى صدر العطاء هذا ، واستمر قائماً ، لا يبقى للنفس شئ تعطيه للّه . ان هذا العطاء على بساطته هو ممارسة كبرى لأسمى الفضائل .

انا إيمان حار جداً ، تستسلم النفس للّه بلا تحفظ ولا رجوع وتؤمن أنه سيدها المطلق ، وفاديها ومقدسها .

هو اثبات رجاء مطلق باللّه ، به تعطى النفس ذاتها للّه طارحة كل اهتماماتها بين يديه ، ناسية حاجاتها ، مظهرة أن لا حد لثقتها بالذى تستسلم له . إنها مستعدة فى كل وقت أن تضحى له كابراهيم ، بأعز شئ لديها . ومثله تعرف أن خلاصه وعونه يأتيان حتى عندما يخيل للمرء بأنه لم يعد هناك من نجاة .

إن بذل الذات هو محبة كاملة ، هو في جوهره محبة . فالمحبة هي التي تمليه ، وتصوغه ، وتعطيه صفاءه وثوابه ، وهي مقياس حرارته وقوته .

آه ! ما أحلى حياة نفس بذلت ذاتها لله ! انها كالسيرافيم لا شغل لها سوى المحبة كساؤها وغذاؤها وتنفسها .

إن بذل الذات هو ممارسة لسائر الفضائل . فالنفس التي تستسلم لله مستعدة في كل لحظة أن تمارسها كلها من غير أن تتعلق بواحدة منها على وجه التخصيص ، وحالما يطلب الله منها ذلك فهي تمارسها بسخاء . هي متواضعة فتعرف جيداً انها ، وإن أعطت كل شئ لله ، تبقى « عبدة بطالة » . انها تمارس الأمانة ، وتتقبل بفرح كل الصلبان التي يقدمها لها يسوع . انها نقية تعيش على هذه الأرض ، متجردة من كل تعلق بالملذات الدنيوية . هي غيور تخصص كل أوقات حياتها لمجد الله وشرف اسمه . وهي سخية قد أنكرت ذاتها إلى الأبد وأسلمتها بكاملها في كل لحظة ، فما عادت تفكر إلا في إرضاء يسوع .

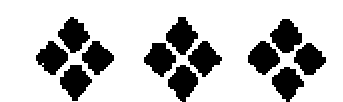
إن معلمنا الصالح قد لخص الكمال في هذا العمل الوحيد بذل الذات في البرهة الحاضرة . إن بذل الذات هذا لقاء بين الله والنفس انه شركة لا تنقطع ، انه الكمال في

أسمى درجة يستطيع الضعف البشرى أن يصبو إليها .

ببذل الذات هذا تقدس كل الصالحين الذين عاشوا على الأرض قبل المسيح . لم تكن لديهم معرفة بشرية بالقداسة ، ولم تكن لديهم الكتب الروحية لتحصيل هذه المعرفة لكن وحى الروح القدس كان يكفيهم ويغنيهم على كل شئ .

ببذل الذات هذا تقدمت النفوس التى عاشت بعد مجئ المخلص : الرسل والشهداء والعذارى والمعترفون وذلك العدد الغفير من القديسين والقديسات الذى يجهلهم جمهور الشعب ، الذين تكرم السماء فضائلهم وتمجدها .

ببذل الذات هذا أيضاً تتقدس نفوس النخبة التى تتبع الآن يسوع على الأرض . إن اكثرها مجهول عند البشر ، معروف عند الله وحده ، لكنها كلها تواصل فى العزلة والخفاء رسم صورة المسيح فى ذاتها . حياة هذه النخبة بسيطة عظيمة مترفعة على الاهتمامات الأرضية ، بعيدة عن ضجة العالم وبلبلته انها تتمتع بهدوء بالها والله يسر بأن يتم عجائبه فيها .



# القسم الثانى

## ممارسة تسليم الذات لله

+++

# الفصل الأول

## ممارسة تسليم الذات بوجه عام

## المقالة الأولى

### علام يقوم بذل الذات ؟

إن علم الحياة الروحية ليس فى معرفة واجب بذل الذات لله ، بل هو على الأخص فى معرفة طريقة ممارسة بذل الذات ولحسن حظ النفس ، ليس فى هذه الممارسة اى سر يخفى عليها .

إن بذل الذات هو فعل من افعال الارادة الحرة . هو اندفاع القلب المستسلم بكامله ليسوع . وهو شغل الارادة تساعدها النعمة . وإذا كانت العواطف مضبوطة فإنها تصبح مساعداً نافعاً .

إن النفس ليست بحاجة لأن تشعر بالاكتفاء أو الارتياح عندما تفكر بأنها استسلمت لله .

يا نفسى ! تعلمى أن تعيشى بالارادة ، ولا تدعى العواطف وما تولد من أهواء تقودك كالأعمى . استسلمى لله بارادتك ، وهذا الفعل روحى بكامله ، ولا يحتاج أن يلبس عبارات ، ويحوط باعتبارات جميلة ، وأن يجعل محسوساً بأقوال .

إن بذل الذات هو لقاء بين اللّه والنفس . وهذا اللقاء يتم فى صميم الارادة بمحبة فائقة .

لننزع من الحياة الروحية تعقيدها ، ولنردها إلى مفهومها الصحيح فتظهر لنا سهلة وغنية . إن اللّه لا يحرّم ما هو عاطفى إذ كثيراً ما يمنح التعزية ويحرك القلب . وإنما يريد فقط الا تعلق على ذلك أية اهمية ، والا نتصور فى أيام الحزن والظلام أنه قد حجب عن النفس حنوه وعنايته الأبوية .

## المقالة الثانية

### يجب أن تبذل النفس ذاتها بكل ما بوسعها من الكمال

لقد جعل اللّه القداسة في متناول الطبيعة البشرية فبذل الذات هو اندفاع قلب محب نحو أب هو أفضل الآباء . فعلى النفس إذن أن تركز كل جهودها فى بذل الذات وأن تقصى عنها كل اهتمام أخر .

لقد أراد يسوع أن تتركز طبيعتنا الانسانية وتتجمع بكل قواها فى المحبة . فلنكتف بتسليم ذاتنا إليه فى كل لحظة بمحبة .

ومتى طرحت النفس عنها هكذا كل اهتمام أخر عليها أن تبذل ذاتها بكل ما بوسعها من الكمال وأن تجعل فيه كل قوة وكل نقاوة .

بوسع ارادتنا أن نحب محبة حارة جداً ، فغاية وجودها الوحيدة هى أن تحب . لقد قيل عن اللّه أنه محبة ، هذا هو جوهره . لكن لا يمكن للارادة أن تكون محبة فى جوهرها ، فهى ليست إلا القدرة على المحبة ، غير أن كل ما أعطاها اللّه من امكانيات يستدعى المحبة .

إن القلب البشرى هاوية لا قرار لها وحوض لا حواف له يتطلب دائماً مقداراً أعظم من المحبة . وكلما امتلأ شعر أنه فارغ ، وكلما أراد أن يروى عطشه ، إزداد عطشاً إلى المحبة .

اننا ندرك بصعوبة هذه القوة المحبة الخارقة التى حبا اللّه بها قلبنا . إننا نحب فى حياتنا العادية ، وشدة هذا الحب تظهر فى ساعات الفراق فقط عندما يكون القلب على أهبة فقدان الشئ الذى كان يحضنه . وقد يذهب هذا الحب حتى اليأس ، وقد يسبب الموت . « فإن المحبة قوية كالموت » (١) .

ما أقوى المحبة الكامنة فى قلبنا ! لكننا نوزعها على أمور لا عد لها . فكل ما يروقنا نعلق به ، وكل ما يبدو لنا جميلاً وحسناً يأسر قلبنا ويقيده. وهكذا نبذر كنوز المحبة المتكدسة فى داخلنا .

---

(١) نشيد الأناشيد ٨ : ٦ .

إن اللّه يدعونا إلى أن نفتح قلبنا واسعاً افتح فمك وأنا أملأه (١) الا وسع رغائبك ، وسع قلبك ، أبعد حدوده ثم ادعني إليك ، فأملأك كبحر زاخر .

على النفس أن تنقي سلامها للّه من كل امتزاج بمحبة الذات ، فمحبة اللّه ذهب خالص وأقل امتزاج بعنصر غريب يكدر لمعانه وجماله .

يجب على المرء ، عندما يريد أن يحب اللّه ، أن تكون لديه الشجاعة الكافية لينسى ذاته ويستسلم إليه تعالى بلا حساب . وعلى النفس أن تغوص في اللّه كحجر يرمى في اللجة . ومن المعلوم جيداً أن هذا الحجر لن يعود أبداً إلى سطح الماء ، وأنه قد ضاع إلى الأبد عن استعمال البشر . كذلك النفس ترتمي في أحضان اللّه مستسلمة لعنايته ولعمله .

وهكذا تسعى النفس إلى أن تعطي فعلها كل ما تستطيع من حرارة وإخلاص ، وعمل التجديد والتنقية هذا يتم داخل النفس في سكينة ، من غير اجهاد ولا إعياء .

---

(١) مز ٨٠ : ١١ .

# المقالة الثالثة

## ممارسة بذل الذات

توضع أسس البناء الروحي عندما تبذل النفس المخلصة ذاتها لله بمحبة سخية . ثم ينبغي البناء أعني : تجديد بذل الذات ، بتواتر . هذه هي ممارسة بذل الذات . إنها تتم بالبساطة والوداعة الهادئة عينها التي تتمم بها النفس المستسلمة لله واجباتها كلها .

فمنذ الصباح ، عند النهوض من النوم ، تتجه النفس إلى الله وتسلم إليه كيانها كله ، راجية منه أن يتصرف به بحسب ما يشاء . وهذا الفعل يقوم عندها مقام صلوات طويلة : إنه قبول المحب لكل ما سيقع له طول النهار من حلو ومر ، من هين وشاق . انه استعداد فرح لعمل كل شئ وتحمله في سبيل ارضاء الله .

وتجتهد النفس بأن تستقر في هذا الاستعداد الأساسي وتعيد بذلها المفضل حيناً بعد آخر . وإذ تخشع على هذا النحو أمام الله تنصرف إلى الصلاة والعمل بحسب مقتضيات مهنتها . انها تبقى سيدة ذاتها خلال اشغالها فتعمل بلا بطء ولا تسرع ، ولا تدع مجالاً ليتسلط عليها الشوق إلى الانتهاء من هذه الأشغال بسرعة ، ولا الرغبة في اكتساب تقدير الآخرين ، ولا السرور الذي تجده في شغلها .

انها ليست لذاتها لكونها قد استسلمت بكاملها إلى سيدها الصالح . وليست أيضاً مستعبدة لعملها لأن العمل ليس غاية بل وسيلة فقط .

هكذا تهتم النفس تباعاً بواجباتها المختلفة وهى متسلطة على ذاتها تماماً ، وبقلب حر غير مرتبك ، فتسمح لها هذه الحرية الداخلية بمباشرة كل عمل بروح منفتح وانتباه متواصل بلا تعب أو تسرع وبلا تراخ أو تباطؤ .

إن أنشط الرجال هم الذين تبدو عليهم علامات النشاط أقل ما تبدو ، أما القلقون والمتشاغلون فهم يكادون لا يعملون شيئاً . إنهم يبدأون لكنهم لا يتمون . وبعد العمل يكون قلبهم مضطرباً وعقلهم مشغولاً وعاجزاً عن التفكير بالله أما النفس البسيطة فهى ، بعكس ذلك ، تقتدى بالله الذي يعمل بهدوء .

هكذا تقضى النفس يومها متسلحة ببذل ذاتها لله . أمر تعيده في كل عمل تعمله وفى كل صعوبة تعترضها وفى كل ألم يحدث لها وفى كل سرور أو حزن تشعر به .

إن لها طريقتها الخاصة فى الصمود للتجارب وإبعاد الملهيات فهى عندما تراها لا تطردها حالاً ، وإنما تهملها

وتكتفى بأن تردد : يا يسوع ، اننى لك بكاملى فأعنى . وهى تتقبل كذلك بكل محبة المعاكسات والصلبان والآلام اليومية .

وأوقات الراحة لا تقطع اتصال النفس بالله فهى تقضيها بقلب حر عارفة أن الله يريدها . لكنها لا تستسلم فيها لسرور باطل ومفرط . فكل شئ معتدل . وكذلك وجبات الطعام ، فهى تتناولها غير مهتمة بنوع الأطعمة : ألا يأتيها كل شئ من يد الله أبيها ؟ فلا تنتبه إلا لهذا الأب الحنون الذى يحبها بحنو ، ولا تفكر بسواه .

وعندما يأتى المساء تتمتم النفس فى بذل ذات أرق - إن أمكن ذلك - وأبلغ ، لكى تعوض عن أخطائها وما أهملته فى نهارها المنطوى ، وبعدئذ تنام بسلام تحت أعين المعلم الصالح الذى يسهر عليها .

## المقالة الرابعة

### المصاعب التي تلاقيها النفس في ممارسة تسليم الذات

تتعاقب الأيام والشهور والسنوات فى ممارسة بذل الذات ، رتيبة فى ظاهرها، لكنها فى الواقع مملوءة تنوعاً. الأساس يبقى هو هو : البذل ، لكن الله رسم على هذا الأساس الواحد صورة ألوانها غير متناهية فى تنوعها .

لا ريب في أن كل الأيام لا تتشابه . فأحياناً تكون النفس كلها يقظة في محبتها . كل شئ يكون لها سهلاً ، كل شئ يملؤها نشوة . فتشعر أنها محمولة في اللّه كقشة خفيفة . وأحياناً أخرى تجر ذاتها بصعوبة وتحس بأنها عبء على ذاتها وعلى الآخرين ، وأنها مقيدة بالأرض وأفكارها لا ترتفع إلا بصعوبة ، ثم لا تلبث أن تسقط ككتلة ثقيلة .

انه من السهل عليها نسبياً أن تبذل ذاتها للّه وقت الصلاة . لكنها تحس بالتعب وقت العمل وفي تتابع الواجبات اليومية . إن عذابها الكبير يتأتى عن عجزها في ذكر حضور اللّه . فكل شئ معه ، يكون عذباً وهيناً . ولكن عندما تنتهي الصلاة تحاصر النفس الملهيات والمشاكل العديدة والهموم ، فتشغلها وتجرفها في تيارها .

مسكينة هذه النفس ... لكن لها عزاء رغم هذا ، فيسوع يطلب شيئاً واحداً هو أن تجدد بذلها عندما تفتكر به . فلتذهب النفس إذن إلى عملها بقلب خال مصممة أن لا تفتش فيه عن لذة ذاتية ، بل عن تتميم المشيئة الإلهية . ومشيئة اللّه هذه تشمل الشواغل التي تفرضها الطاعة والظروف الاجتماعية والحاجة واللياقة. إن للنفس المستسلمة للّه طموحاً مقدساً إلى تتميم أصغر واجباتها

بدقة . انها ترى فى كل شئ مسرة أبيها السماوى ، وهى تحسب أنها ترتكب خطيئة لا تغفر إن غيرت بارادتها الذاتية أدنى شئ من الترتيبات الإلهية بشأنها . وهى تفتش بفضول عن معرفة ما يطلبه اللّه من الآخرين ، فليس لها إلا نظرة واحدة ، وهذه النظرة متجهة بكاملها نحو واجبها ، وليس لها إلا بغية واحدة هى أن تتمم جيداً هذا الواجب .

إن العمل هو كالسر الذى تتقبل فيه النفس السيد المسيح ، إنه الحجاب الذى يخفى وراءه السيد حضوره الحقيقى والقلب البسيط يمزق هذا الحجاب ويرتمى بين ذراعىّ سيده .

كل عمل يتمم على هذا النحو ، هو بذل ذات جديد للّه . والنفس المؤمنة تتقدم بلا انقطاع فى هذا الطريق المؤدى إلى الكمال ومع مر الزمن ، ومن غير أن تلاحظ ذلك ، يتحول فيها كل شئ وينااله ، فيسوع يبذل ذاته بقدر ما تستسلم النفس إليه ، إنه يضع ذاته بديلاً عن النفس وينزع عنها عيوبها ويزينها بفضائله الخاصة .

يا يسوع ، إنى لا أريد أن اكتفى بأن أقدم لك مرة واحدة بذل نفسى الكامل ، بل أريد أن أجعل من هذا البذل أساس كل جياتى وشغلها ، ففى هذا كمالى .

# المقالة الخامسة

## التعود على بذل الذات

إن الطبيعة تستلزم وقتاً طويلاً لتنضج ثمرة فقط . والله يستعمل وقتاً أطول لينضج فى النفس ثمرة القداسة .

بعد برد الشتاء ، وتحت تأثير أوائل أشعة شمس الربيع ، يمتلئ البرعم بالعصارة ثم يتفتح زهرة جميلة . لكن حياة الزهرة قصيرة عابرة لا تلبث أن تسقط فتسمح للثمرة بتكوين نواتها الأولى . وبهذا يبدأ عمل نمو وتكوين طويل فى ظروف صعبة : فعلى الثمرة أن تتحمل الحر والبرد ، الصحو والشتاء ، وأحياناً يظهر أن كل العناصر تتحالف ضدها لتنتزعها من الغصن الذى يحملها ويغذيها بعصارته .

هذا هو عمل تكوين الثمرة الشاق الطويل وهو يشبه بذل الذات تمارسه النفس طويلاً . وفى أحوال شتى ، تحت أشعة الشمس الإلهية المحببة . عند زيارة المعلم الإلهى ، كما فى وسط العواصف والأمطار ، وتحت وطأة ريح الشمال وفى أيام الصيف حيث يبدو كل شئ وكأنه يتآمر لارهاقنا وتحطيم صبرنا .

لكن هذا كله حسن ومفيد . فالفضيلة تتقوى هكذا

تدريجياً ، والثمرة تبلغ نموها التام ، وتكسب عطرها العذب ولونها البهج وطعمها اللذيذ .

وأخيراً يأتى الخريف ، فيزداد صفاء السماء وتخف حدة الشمس : هذا أوان الحصاد . وكذلك النفس التى بلغت هى أيضاً خريفها الروحى ، تظهر أحياناً أقل اضطراماً بمحبة الله مما كانت عليه فى أيام الصيف المشمسة ، بيد أنها قد تعدت منذ زمن طويل حقبة النمو الصعبة . لقد انتهت المرحلة البطيئة والشاقة فى اتحادها بالله ، وهى الآن تتمتع به . هذا هو بذل الذات الذى أضحى لديها حالة عادية هنيئة .

فالنفس ترجع إلى الله ، فى كل ظرف ، بسهولة وبساطة ، وتتمم كل أعمالها بقبول وبلا تسرع ، تحت نظره الإلهى . لكنها لا تتميز عن النفوس الأخرى ، فهى لا تنفرد ولا تصنع أى شئ غير اعتيادى من تلقاء نفسها ذاتها كما انها لا ترتبك لأنها كلها لله . هى تكتفى باتمام مشيئة الله ببساطة وبلا تصنع إنها انيسة وطيّعة ، لكنها لا ترتبط بشئ أبداً ولا تؤسر : فيسوع لا يسمح بذلك لأنها ملكه هو . إنها تعيش متخفية بقدر ما يريد يسوع ، لا أكثر ولا أقل . وحدسها يدفعها نحو الحياة المتواضعة المجهولة المتوارية لأنها تجد فى الخلوة ينابيع أكثر عذوبة لتروى العطش الذى يعذّبها .

لكن هذه النفس البسيطة والمجهولة هكذا ، التى قلما يقدرها العالم ، تحيا فى الحقيقة فوق الأحداث الدنيوية . حياتها تحليق نسر فى أجواء اللّه الواسعة ، وكلما اخترقت هذه الأجواء رأت الأفق يتسع أمامها دون توقف : إن عليها أن تتجاوز اللانهاية .

يا لها من حياة مغبوطة ويا له من توقان مقدس ! ما أسمى حياة الاتحاد هذه . إنها ثمرة بذل الذات المستمر ، التى تجنيها النفس البسيطة باجتهادها وجدها .

## المقالة السادسة

### بلوغ النفس الكمال في ممارسة بذل الذات

إن حياة الإنسان هى سلسلة لا تنقطع من الواجبات ، هى تعاقب حوادث مبهجة ومحزنة .

العقل البشرى لا يرى إلا الحاضر ، أما اللّه فيحيط بمجمل الأحداث التى تؤلف الحياة بكاملها . وهو قد سبق فرتب تفاصيلها كلها ، وحدد كل الأوقات مازجاً الهينات بالمضنيات ، والأفراح بالأحزان ، ونجاح المساعى بالفشل . وحدد للحياة دوامها وغايتها وكل شئ فى مقاصده الإلهية يجب أن يؤول إلى مجده العظيم وتقديس مختاريه .

والنفس البسيطة التى اكتسبت بكثرة الممارسة عادة بذل الذات ، تستسلم لقيادة اللّه فى كل حوادث الحياة ،

وهى إذ تجهل المستقبل ولا تريد أن تعرف عنه شيئاً . تكتفى بأن تمسك بيد الله وترافق سيدها طيلة نهارها . إنها لا تعيّن لدليلها الطريق ولا تفرض عليه مواقف الاستراحة ، فذلك كله من شأن الله . أما دورها هى فهو ان تتمسك باليد التى تقودها وتمضى فى سيرها : إنها تعرف أن الله سيد الزمان والحوادث وأنه سيبلغ المصير فى الساعة التى سبق فحددها .

والنفس التى يقودها الله فى الحياة لا تدهش لشئ . وكثيراً ما لا تفهم شيئاً من الحوادث المتتابعة حولها ولا من التغيرات الحاصلة فيها ، فلا تهتم لجهلها هذا إذ تعرف أن بيد الله مفتاح وقائع التاريخ جميعها وتفاصيل حياة كل إنسان . لقد علمتها الخبرة أن بعض الحوادث التى لا أهمية لها فى الظاهر حدد أن يكون لها أعظم النتائج ، وأن حادثاً لا اهمية ظاهرية له قد أراده الله ليجنبها خطراً ما . وهكذا فهى لا تحكم على شئ بأنه تافه او قليل الأهمية فى حياتها ، كما أنها تتقبل أقل الواجبات وابسط الحوادث وأصغر الصلبان بعظيم الاحترام ، وعميق المحبة . فهى تعرف أن هذه كلها بمثابة كسرات من القربان المقدس تحوى ، على صغرها ، ذات الله الكاملة .

إنها لا تميّز بين الواجبات التى عليها أن تتممها ،

والصلبان التى عليها أن تحملها . فتتقبل هذة وتهمل تلك ، لأن لها كلها قيمة واحدة أمام اللّه . النفس البسيطة لا تتشكى أبداً ، لأنها لا ترى مَنْ أو ما يمكنها أن تتشكى منه . كل شئ فائض لديها واللّه يأتيها مع كل برهة مغدقاً نعمه غير المحدودة .

انها لا تتشكى من أن الوقت ينقصها لتتفرغ للصلاة فكل شئ بالنسبة إليها هو وسيلة لتتحد باللّه . انها لا تتذمر من المعاكسة التى تعترضها ظلماً ، فهذه المعاكسة تدخل فى مقاصد اللّه . انها لا تلوم الآخرين ولا تنتقد مسلكهم لأنها لا تعرف نياتهم . انها تكتفى بتتميم واجبها من غير أن تبتغى بافراط نجاح جهودها .

كثيراً ما تضطرب أفضل النفوس عندما ترى عقم عملها الذى أقدمت عليه بخلوص نية لمجد اللّه ، فتتحسر على هذا الاخفاق ولا تتعزى إلا بصعوبة أما النفس الروحية حقاً فلا تقع فى هذا الانحراف ، لأنها تعرف أن اللّه كثيراً ما يريد الجهد والتعب لا النجاح . فلا نغتمّنّ لاخفاق يبدو معاكساً لمقاصد اللّه ، فأفكار اللّه أوسع من أفكارنا ، وهى تشمل الخليقة كلها وتمتد إلى الأبد .

لعمرى أن حياة كهذه لمليئة بمفاتن إلهية ! فاشرعى يا نفسى منذ الآن فى أن تحييَها ، لقد قدمت ذاتك للّه واستسلمت له محبة فيه ، فرافقى الآن دليلك خلال واجبات النهار وحوادثه وأتعابه كلها . اكتفى بأن تحبّيه

تقبلى مـا يعطيك إياه . أتممى مـا يـأمـرك بـه ، احـمـلى الصلبـان التى يرسـلهـا لـك ، ثم اتركى له الحرية ليصنع فيك وبك كل مـا يريده . فـقداسـتك مـضمـونة ، وكـذلك سـعادتك .

يا مريم الأم الحنون ، إنى أحبك بقـدر مـا يسـتطيع قلبى المحبة وأريد أن أبقى قربك دائماً كيعقوب قـرب أمه . فـيا رفـيـقـتى السـمـاوية علمـينى سـر إرضـاء أبى حـتى يباركنى ويقدسـنى .

## المقالة السابعة

### بذل الذات والهفوات العارضة

إن النفس قـليلة الخبـرة تظن إنهـا تتـحـرر من كل خطيـئة ، منذ بذل ذاتهـا لله ، فـتـغـضب أو تقنط عندمـا تلحظ ضـعـفهـا ، لذلك يجب أن يُجمع بين ممارسـة بذل الـذات الايـجـابيـة ومـا يمـكن أن يسـمـى « ممارسـتـه السلبية » .

لا جُرم انه ليس هنالك شئ مـعاكس لبذل الذات أكثر من الخطيئة فـإن الخطيئة هى محبة الذات غير المرتبة ، هى الأنانيـة ومع ذلك فـإن النفـوس التى ألفت بذل ذاتهـا ليسـوع تقـتـرف الهـفـوات . ولكن التناقـض هنا ليس إلا ظاهرياً ، وهذا ما يهم أن نفهمه لسلام النفس .

هناك ، كما يقول القديس أوغسطينوس ، حبان يتنازعان السلطان على النفس : حب اللّه وحب الذات . وحب اللّه حتى الإزدراء بالذات . هو الحب الكامل أما حب الذات المفرط حتى كره اللّه فهو الخطيئة المميتة ، هو تهديم عرش اللّه فى القلب .

وعندما يسود اللّه في النفس فهو قادر على سحق عدوه حب الذات . لكنه يكتفى بأن يقوى عليه ويتركه خاضعاً لسلطانه . فاللّه لا يريد ان يختفى حب الذات دفعة واحدة من القلب الذى استولى عليه هو بل يسمح له بأن يبقى عائشاً فيه ولكن فى حالة عبودية ومذلة . واللّه يتصرف هكذا لأسباب كثيرة يريدنا أن نتبين بعضها .

انه لمفيد أن يسكن العدو بجانب أولاد اللّه .

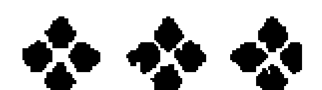
فالعدو المهدد والمستعد دائماً للهجوم يضطر النفس إلى السهر والنفس تغفو على اهمال رخى ، إن لم يكن لديها جهاد تقوم به . وعندئذ أين تكون قوة الفضيلة ؟ ولكن ما دام هنالك حرب فالنفس تضعف أحياناً وعندئذ تقع فى الخطيئة فالخطيئة هى الشرط اللازم لهذه المعركة الدائمة التي جعل اللّه الانسان فيها على هذه الأرض . لأن اللّه إذا أراد لنا العراك وجب أن يسمح بالسقوط ، ومجده يكون بأن يستخلص الخير من الشر ولا يدع للعدو إلا انتصارات وقتية عابرة .

ومن جهة ثانية ، فالسماح بوقوع الشر هو ، في مقاصد الله ، أفضل صيانة للتواضع . فالنفس البشرية تنخدع كثيراً في أمر استحقاقها الشخصي وما عدا القديسين لا يعدل أحد في هذا الصدد فالنفس بحاجة إلى اختبارات يومية متكررة ، وهي لا تكف إلا مع الزمن عن أن تنسب إلى ذاتها استحقاقاً ليس لها . ومع ذلك يجب أن يذكرها الله في كل برهة بعجزها التام عن بلوغ الخير بدون نعمته .

تحت ظواهر عدم الكمال هذه يخفي الله الكمالات الحقيقية التي يبثها في النفس ، والتي ينميها فيها كل يوم تارة عن غير علم منها وطوراً بمشاركتها السخية .

وعلى كل حال ، لا تتأصل هذه الهفوات في النفس التي بذلت ذاتها لله . بل كلما نبتت الأعشاب الرديئة اقتلعت ، أما النبتة الصالحة فتكبر وتنمو بلا توقف .

وهكذا تمحو كل يوم بالانسحاق والتوبة ، كل هذه الهفوات الصغيرة ، التي يسامحنا الله عنها أيضاً فنتأصل في المحبة وبذل الذات ويغمرنا فيض من النعمة الإلهية .



# المقالة الثامنة

## العقبة الكبري في حياة بذل الذات لله

إن فى حياة البذل عقبة كبرى تصطدم بها بعض النفوس وتغرق وهذه العقبة هى زهو خفى ، كبرياء مقنع تعمى النفس وتجعلها تبالغ فى تقدير صلاحها ، مما يولّد فيها الغيظ والحنق بعد سقطاتها .

آه ما أخبث هذا السم ! انه يمتزج بكياننا وينتشر فى الجسم كله . هذا السم لا يقتل عادة ، بل يضعف ، وينهك . فتحس النفس التى يجتاحها بأنها تذبل ، لكنها لا تعرف السبب .

وتمر السنون الأولى من الحياة الروحية فى حرارة كبيرة . وتحاول النفس بحماسة تحطيم عيوبها واكتساب الفضائل ، وتكثر من تشديد العزم وامتحان القلب وتذكى حماسها بالتفكير فى أنها ستصبح بعد مدة كاملة وبلا خطيئة وتمرّ الأشهر . وتتابع السنون وتبقى القرارات عينها والجهود عينها ويبقى الضعف عينه . ويتكون فى قرارة النفس مع الزمن حزن وضعف ثقة بالله ، وتفقد النفس رجاءها فى الوصول إلى القداسة . وتظهر لها هفواتها المتكررة كعقبة كؤود تحول دون بلوغها الكمال ويظهر لها ما نوته من بلوغ القداسة فى شبابها الروحى

كأحلام بعيدة : لقد تبددت أحلامها وأضحت تقول : إن القداسة ليست لأمثالى .

إنك لمخطئة أيتها النفس المسكينة . لقد جعلت القداسة لك ، ولا ينقصك ، لتكونى كاملة إلا شئ واحد : أن تعرفى ذاتك أمام الله كما أنت .إنك فى كل حين ، ضعيفة جداً عرضة للخطيئة فاعترفى بهذا بكل رضى ، إنك عاجزة عن كل خير فأقرى بهذا ببساطة أمام الله . ستخطئين كل يوم مع أنك تقصدين بإخلاص وصدق ألا تعودى إلى السقوط فارتضى بما قسم لك بشجاعة .

انه لمن أعظم أسرار الحياة الروحية ألا تضطرب النفس بعد سقطاتها لكن هذا سر لا يستطيع غير الله أن يبثه في النفس فهو يفترض فيها ، من جهة ، معرفة فائقة لضعف الارادة ولافراط تقلب الفكر البشرى . ويفترض فيها ، من جهة أخرى ، خبرة شخصية عميقة لصلاح الله الذى لا يكل ، ولحنانه نحو خليقته الصغيرة الذى لا ينفد . ان فى يسوع من الصلاح والحنان والتنازل ما لا يتيح لأى ضعف ولأية خطيئة أن تحوله عن نفس مخلصة .

كلنا نسير على هذه الأرض كمنفيين ، نحو وطننا السماوى ، والطريق طويلة مملة . فهل هناك من عجب يشل العياء أحياناً سيرنا أو أن يصرعنا فى الطريق ؟ وأحياناً تجتذب الأشياء التى يصادفها نظرنا طوال الطريق

انتباهنا كثيراً . وتلهينا عن سيرنا إلى الأمام ، مع ذلك لا نتوقف أبداً عن السير ، ولا تراودنا ابداً فكرة الرجوع الى الخلف .

كان طوبيا الفتى ، فى سيره إلى بلاد الماديين ، يتوقف احياناً فى الطريق فيستريح ويروى عطشه على ضفاف البحيرات التى يمر بها . ولعل هذه الاستراحات قد أخرته طويلاً فى سيره ، وعرضته للأخطار ، لكن الملاك كان ساهراً يتدارك قلة تبصره .

كذلك يساعد اللّه النفوس الطيبة . انه يتفحص أعماق القلوب ويرى فيها الارادة الصادقة بأن تكون النفس له ، فيغفر لها ، راضياً ، هفواتها العارضة نتيجة ضعفها .

إن كبرياءنا تحول دون فهمنا كيف يمكن للارادة أن تكون صادقة فى وعودها للّه بأن تكون أمينة له ثم تقع بعد برهة فى خطيئتها السابقة .

وهذه الكبرياء تعمينا أيضاً عن الفهم أن تلك الوعود وتلك السقطات قد تتكرر حتى آخر حياتنا دون أن تنقص من رحمة يسوع واشفاقه على ضعف البشر .

يا يسوع ! ما أقل معرفتنا لسر تقديس النفوس ! نحن نظن أن لنا فيه قسطاً وافراً ! لكننا ، وا أسفاه ، لا نسهم فيه إلا باعترافنا بتقلبنا الدائم ، من غير أن نتعب أبداً من سقطاتنا . وأما الباقى فهو عملك .

# الفصل الثانى

## ممارسة التسليم وقت الشواغل المختلفة

## المقالة الأولى

### ممارسة بذل الذات وقت الصلاة

يا نفسى ، اتبعى الآن يسوع فى مختلف الأفعال اليومية ، فهو يعلمك أن تتمميها بطريقة مقدسة . ادخلى فى أثره محراب الصلاة السرى فتشربى فيه كؤوس المحبة مترعة .

يا إله الجلال ! كيف تستطيع خليقة هزيلة أن تدنو منك ، وأن تتحدث معك فى خلوة مقدسة قلباً إلى قلب ، وأن تحس إنك تريح ناظريك فى ناظريها ، ألست أنت ذاك الإله العظيم الذى تنحنى الملائكة أمامه باحترام وهى تستر وجوهها ، ويجثوا أمامه قديسو السماء وهم يرتجفون ويرددون : قدوس قدوس ، قدوس هو السيد ، رب القوات ؟

كيف أستطيع أنا الرماد والتراب أن أكلم سيدى وإلهى ؟ ان اليهود لم يكونوا يجرؤون أن يرفعوا ، فى الصحراء ، عيونهم نحو الله ، بل كانوا ينتدبون موسى ليتوسل من أجلهم ، وفى تلك الأثناء كانوا ينتظرون عند أسفل جبل سيناء وهم يرتجفون ويكادون يموتون رعدة .

وبعد هذا أجرؤ أنا على الدخول إلى قدسك والمثول أمام عرشك ، ومخاطبتك بدالة ؟ فهل خففت لمعان جلالك أو تساهلت بحقوقك السامية ؟

- كلا : فإنك إله الأبد ، ملك الملوك ، إله الأجناد السماوية ، وعلى كل خليقة أن تعبدك معفرة رأسها فى التراب .

فعندما تمثلين أمام إلهك . لا تنسى ، يا نفسى ! واجب الاحترام والخضوع هذا . واعلمى أيضاً أن اللّه لا حد لصلاحه .

إن استير لما مثلت أمام احشويروش الجالس على عرشه فى بهاء جلاله الملكى ، أخذت ترتجف احتراماً وكاد يغمى عليها ! لكن الملك الذى تسلط عليه جمالها مد إليها صولجانه الذهبى وقربها إليه بلطف ثم قال لها بمحبة : إن الأمر الذى يخضع له الآخرون لا تخضعين أنت له .

فيا لامتياز النفس البسيطة : انها تدخل مساكن الملك باحترام عظيم ولا شك ، ولكن بجرأة الأطفال . هى تعرف امتيازها وتستطيع أن تدنو منه وأن تحدثه بألفة وأن تجلس عند قدميه وأن تحبه .

ولكن كيف يمكن التحدث مع هذا الجلال السامى ؟ إن النفس لا تعرف إلا شيئاً واحداً وليس لديها سوى فعل

واحد ، هو بذل الذات . كيف نقوم بكل ما تقضيه الصلاة كيف نتبع الطرق التى رسمها المعلمون ونعرف الدرجات ونميز الفوارق ، ونتجنب العثرات ونبلغ بالأفكار والعواطف والمقاصد إلى قياساتها الدقيقة ؟

– لا تخافى شيئاً يا نفسى فأنت تعبرين بفضل بساطتك حيث تتوقف نفوس أخرى مرتبكة .

إن فى الصلاة عنصراً مشتركاً بين جميع النفوس ، وفى متناول كل الطاقات ، ويتفق مع كل الميول . وهذا العنصر هو جوهر الصلاة انه ليس إلا اتحاد الارادة بالله . وهذا الاتحاد يتم بالمحبة الذى يسلم لله الإنسان بكامله . هكذا تصلين يا نفسى طيلة النهار من غير أن تعلمى ذلك . إذ أنك ببذل ذاتك باستمرار وانتباه تصبحين وكأنك متأصلة فى جو الصلاة والصلاة تمسى تنفسك وحياتك ، فهل أنت بحاجة لتتعلمى التنفس والحياة ؟

فما هو إذن سر الصلاة ، وما هى طريقتها ؟ – إن سر الصلاة هو أن تبذلى ذاتك لله بمحبة ، هو أن تسلمى روحك وجسمك للارادة الإلهية ولكل أوامرها لك . وطريقة الصلاة هى أن تجددى هذه المحبة باستمرار ، وأن تجعليها أكثر اخلاصاً وأكثر حرارة وأكثر طواعية وأن تدخليها فى

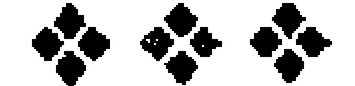
حياتك وآلامك وأفراحك كلها . فمتى تم لك ذلك تم أول الواجبات وأهمها .

فإذا فهمنا الصلاة على هذا النحو أصبحت بسيطة وعميقة . هى بسيطة كالإله الذى تحبينه ، وعميقة الغور كمحيط المحبة اللامتناهى الذى تغوصين فيه ، هى واسعة وتفتح لك آفاقاً لا حد لها ، لأن اللّه يسُر بأن يبنى على هذا الأساس البسيط .

لقد انهيت عملك الرئيسى واللّه يبدأ الآن عمله . أنت تطلبين طريقة ، واللّه سيدلك عليها ، فلا يستطيع إنسان أن يعلم النفوس طريقتها فى الصلاة لأن كل واحدة تتبع طريقة خاصة بوحى اللّه وقيادته .

إن المرشدين الروحيين يستطيعون أن يرسموا بعض المعالم ، ويقترحوا بعض القواعد ، ويرسموا بعض السبل . وهذا لعمرى عمل مفيد ولا شك ، لكنه يخلو من التدقيق والوضوح فلذلك هو عمل اللّه . فهو الذى يعلم النفس ، فى خفايا القلب ، والنفس المستسلمة له تسمع صوته .

آه ! ما أهم أن يكون المرء طيعاً فى يد اللّه وأن يتقدم إلى الصلاة متفرغاً من كل تعلق بمفاهيم البشر .



# المقالة الثانية

## إن الله يقود بذاته النفس البسيطة
## في مسالك الصلاة

إن النفس التى تمثل أمام اللّه فى الصلاة يجب أن تغور فى لجة الاحترام أمام جلاله السامى ، ثم ترتمى بين نراعيه بجسارة بنوية وتفيض له الحب . فجوهر الصلاة العقلية هو المحبة التى تسلم النفس للّه ذلك ما يطلبه السيد من كل نفس .

والنفس تحاول أن تثبت محبتها بهدوء وبساطة من غير اجهاد عقلى أو عناء . وبعدها تجعل ذاتها تحت التأثير الإلهى قدر استطاعتها ، مصغية إلى اللّه ومتوقفة بسلام تحت نظره مكررة حبها أحياناً بأكثر جلاء أو تمتمة ، إن شاءت بشفتيها ، أو تصعده من أعماق قلبها ، وعند كل غفلة أو تشتت فكر أو تجربة تجدد بذل ذاتها للّه باثبات محبة جديدة . هذا ما يطلبه اللّه دائماً من النفس فى الصلاة . أما إذا تطلب منها أكثر ، كما يحدث غالباً فهو يقول لها ذلك ويفهمها إياه . إن لديه طرقاً كثيرة لمخاطبتها والتجلى لها ، وهذه الطرق كلها فعالة وناجعة . لكنما يجب أن تستجمع النفس أفكارها وأن تستسلم وتصغى ، وأن تكون طيعة .

إن اللّه قد أعد لكل نفس طريقتها للصلاة ، وله وحده أن ينظم سبل الحوار معه . فهو لا يرتبط بطريقة ولا يتقيد بأية قاعدة ثابتة .

انه السيد ، يمسك بيده كل النفوس ويحركها ويوجهها ويكيفها كما يشاء فعله عجيب قلما يلحظ أو يدرك ، لكنه أبداً صالح . يسمح أحياناً بأن يرى فعله هذا ، ويساعد هو نفسه على اكتشافه ، حتى أنه يأمر بوصفه وعرضه على تقدير الجميع واحترامهم وقد ترك بعض القديسين والقديسات وصفاً جميلاً لفعل اللّه فيهم ، لكن هذه الحالات نادرة . فقد قضى تدبير اللّه أن يرجئ رؤيتنا لعجائبه في النفوس حتى تنتقل إلى ملكوته السماوى ، ومن التطاول أن يريد المرء معرفة أعمال اللّه وسبر غورها في هذه الحياة . وكل نفس طيعة ترى في ذاتها فعل اللّه بصورة كافية لاتباعه ، وغير كافية لادراك أسراره .

وقد يدعو اللّه النفس أحياناً إلى التأمل فيغمر عقلها بنور حول احدى الحقائق الكبرى ويدعوها لتزداد فحصاً لها وتكون هذه الحقيقة أحد أسرار الإيمان . كالقربان المقدس أو الآلام ، أو طفولة الإله المتأنس ، أو أحد الحوادث الفريدة من حياة يسوع ، أو تكون إحدى صفات اللّه الحسنى كصلاحه الفائق ، أو قدرته ، أو حضوره في كل مكان ، أو كماله السامى المطلق ، وقد تكون أحد الأهداف

الأخيرة ، أو إحدى الحقائق الأبدية ، أو شركة القديسين ، أو إحدى الفضائل كمحبة الله والامتثال لمشيئته الالهية . فتقف النفس طائعة ناظرة ومفكرة .

وإن شعرت بميل إلى التأمل فهى تكتشف معانى جديدة وآفاقاً أوسع ومصادفات مدهشة وأنسجامات عجيبة . وهذه علامة على أن الله يدعوها للمزيد من التوقف والتعمق في التأمل ، انه يريد أن يغرس فى النفس اعتقادات عميقة واعية يتولى تثبيتها فيما بعد بنور فجائى ورؤية حدسية .

واحياناً لا يوحى الله إلى النفس بميل إلى التأمل فتعجز عن تركيز فكرها . والحقائق الأكثر وضوحاً وثبوتاً لا تجد لها فى العقل اى صدى . ويولّد التأمل فى النفس ضجراً طاغياً ، فيما يبقى القلب محباً . إن الله يقود هذه النفس ، وهو الذى يوحى إليها بالمشاعر الملتهبة ، وعليها أن تطيع وتتبع الجاذب الإلهى .

واحياناً لا توحى العواطف للنفس شيئاً ولا يستميلها دفق قلب كله لهب . ويظهر لها التأمل من جهة أخرى تمريناً مملاً وعقيماً . فتؤثر بالعكس أن تغوص فى العزلة وأن تبقى فيها صامتة بقرب الله . فيجتاحها غالباً انفعال عميق لكنه هادئ . فى تحس بالغبطة بقرب الله مع كونها

تكاد لا تخاطبه فحضرة هذا الكائن اللامحدود تغمرها وتجعلها فى حالة هيبة عميقة . بيد أن محبته الفائقة تفعمها بهجة فترتمى فى حضن اللّه كما فى لجة لا قرار لها .

كل هذا يتم ببساطة فى أعمق أعماق النفس بحركة تلقائية لا بكلمات صريحة . فتبقى النفس تحت تأثير لقائها باللّه ومنذئذ تصبح أعمالها كأنها معطرة بطيب إلهى فتتمنى لو يدوم هذا الاتحاد العذب الصامت إلى الأبد . لكن للّه أفكاراً أخرى ، فتعقب فترات اللقاء الإلهى أوقات برودة وجفاء وتظن النفس أن اللّه يرذلها فتذوب أسى وتئن .

وهكذا يقود اللّه النفس عبر التقلبات والتطورات حتى القمة حيث تنفتح أمامها من جديد آفاق أخرى تغريها على أن تحث الخطى .

ولكن ماذا ينفع وصف كل هذا يا يسوع ؟ فكل نفس طيعة هى عالم من المعجزات ، وكل واحدة تتبع طريقاً لها لا يعرفه أحد سواك وأنت ترسمه وحدك . وأنا لا أريد إلا أن أكون طيعاً أصغى باحترام إلى صوتك العذب ، وأجرى وراءك ، فيكون سبيلى أن أحبك فى كل شئ وعلى الدوام ، وأن أستسلم لهديك وأن أسألك بلا انقطاع مزيداً من الحب .

يا مريم العروس المقدسة ، الحمامة السرية ، علميني ان أقدم لسيدى وإلهى سجوداً مقروناً بالمحبة الفائقة .

## المقالة الثالثة

### ممارسة بذل الذات في التمارين الروحية

إن النفوس التقية لا تكتفى بالصلاة ، فلديها مجموعة تمارين روحية لتنمية النشاط وتغذية التفانى ، وهذه تؤلف طعام النفس الروحى . وأهمها القداس الإلهى والمناولة والمطالعة الروحية وزيارة بيوت اللّه وصلاة اسم يسوع والاعتراف . ولا يسوغ الاقلال من أهمية هذه التمارين وغيرها . ولا الغلو فى مدى طاقتها . فاللّه يقود النفوس ويكملها بحسب مشيئته ، ويستعمل لذلك طرقاً متنوعة لا عد لها ، تحل التمارين التقوية بينها ، عادة ، محلاً مرموقاً ولكنه مع ذلك يهمل هذه التمارين أحياناً ويستغنى عنها .

وواجب النفس هو أن تتبين ما هى هذه المشيئة الإلهية بالنسبة إليها وأن تتبعها بأمانة حالما تعرفها . فإن كانت تعيش فى دير ، فيما بين غزارة الوسائل الخارجية المقدسة توجب عليها أن تعنى في استعمالها . وإن كانت تعيش فى العالم وفى زحمة المشاغل ، أو كانت تعيل أسرة وتهتم بتحصيل خبزها اليومى ، فهى لا تستطيع أن تتقيد بتلك التمارين مثل تلك الدقة أو النسبة كما أنها غير

ملزمة بذلك . فالله الغنى بالرحمة والرأفة يعطيها بطرق أخرى النعم المنوطة بالتمارين الروحية .

من تراه يصدق أن النفوس التى تنعم بفيض من الوسائل الروحية ، قد تجد فى هذه الغزارة عينها عقبة تحول دون بلوغها الكمال ؟ ومع ذلك فهذا يحدث فى الواقع .

مسكينة الطبيعة البشرية ! إن تركت لحكمها الذاتى اصطدمت بكل حجارة الطريق . فمتى تراها تدرك أن السير فى طريق الكمال سيراً فعالاً لا يكون بقوة الانسان وحده ، بل بسيره مستنداً إلى ذراع الله .

هناك نفوس تريد أن تصل إلى الهدف بسرعة . فهذا ولا شك شوق نبيل . ولهذه الغاية تكثر من التمارين الروحية والمطالعات والصلوات والأحاديث التقوية . لكن كل شئ لا يسير بحسب مشتهاها . فقراءة الكتب الروحية تثقل ذهنها بدلاً من أن تنيره. والأحاديث الروحية تترك فى قرارة النفس حزناً غامضاً وفراغاً أليماً ، والصلوات الكثيرة تورث الضجر والنفور ، فأين هو الخلل ؟ لقد كان ، وا أسفاه للارادة الخاصة نصيبها فى هذا الاندفاع ! وكانت هذه النفوس تروم أن تستبق الله ، كالولد الذى يترك يد أمه ويسير وحده فى الطريق ، فلا عجب إذا وقع وأصابته الجراح .

ليس من تمرين روحى يفيد النفس إن كان خارجاً عن ترتيب الله . فاهتمام النفس الدائم يجب أن يكون بأن تسلم ذاتها كاملة لله ، ثم بأن تتخذ الوسائل التى يعطيها الله واحدة فواحدة ، بالشكل الذى يحدده وفى الظروف التى يحيطها بها ، وفى الوقت الذى يعينه لها . أما محاولة التمسك بها عندما نفقدها بأمر الله ، والرغبة فى إطالة زمنها والاكثار منها والتشدد فى تتميمها خلافاً لارادة الله ، فهذا مما يعاكس الترتيب الإلهى المعد لكل نفس منذ الأزل .

فيجب إذن أن تمارس النفس تمارينها الروحية بقلب متفرغ جداً ، وأن تقصى عنها كل تسرع وكل تعطش غير معتدل ، كما تبعد كل جبن وكسل وملل .

يعتقد يوحنا الصليبى أن كثيراً من النفوس التقية تغذيها نقيصة سماها « الشراهة الروحية » ، فمن يستطيع تخطئة مشورة هذا القديس والمعلم الخبير فى ارشاد النفوس ؟ إن الإفراط وعدم الاعتدال يذيب الصحة الجسدية لأنه نقص فى التسلط على الذات وضعف فى الارادة التى لا تعرف أن تردع شهوات الحواس الجامحة ، وهذه النقيصة نفسها ، على الصعيد الروحى ، تدمر صحة النفس . انها جوع وعطش مفرطان ، ودليل ضعف فى التسلط على الذات وتعلق زائد بآرائنا الشخصية .

إن النفس التى ابتليت بهذه النقيصة تظهر بوضوح انها لم تتفهم بعد تعليم بذل الذات المعزى ، أنها تريد ولا شك أن تستسلم لله ولعنايته . ولكن على طريقتها هى ، وفى الزمن الذى تحدده هى ، ومع التحفظات التى تضعها هى ، وكأنها تريد ان ترشد الله إلي الوسائل الواجب اتخاذها وتهيء له ما من شأنه أن يعجل فى عملية تقديسها .

مسكينة هذه النفس ! انها تتحمل مشاق لا جدوى فيها ، وأسوأ من هذا فهى بتسرعها غير المعتدل ، تعرقل عمل الله .

## المقالة الرابعة

### إن النفس المستسلمة لا تهتم في تمارينها إلا لترتيب الله

تعلمى يا نفسى أن تتمى تمارينك الروحية بكل هدوء وسلام لا تحذفى شيئاً مما يفرضه عليك الواجب ولا مما يطلبه الله منك ، ولكن لا تثقلى عاتقك بممارسات مفرطة.

أنت ابنة الله وهو يفهم جيداً لغة القلب . فقولى له ورددى أنك له إلى الأبد فذلك ما يبتغيه منك . ثم أدى تمارينك بالدقة والكمال اللذين تتمين بهما كل أعمالك .

وبعد هذا كونى فى سلام فالله يتولى امر كمالك يوم تضحين بكل شئ لارضائه .

لا تقومى بقراءات روحية إلا بحسب أمر الله وفى الزمن الذى يحدده . فإن هذه القراءات خارجاً عن مشيئة الله لا تولد إلا الاضطراب فى النفس وتضعها فى الظلمة بدل أن تنيرها ، وتلبكها بدل أن تساعدها وتقلقها بدل أن تطمئنها .

انه لمن الضرورى الا تكون للمرء أية ارادة خاصة وأية مبادرة غير التى تدفعنا لنكون حقاً لله بلا تزعزع فى جميع الحوادث فى النجاح والاخفاق ، فى الهناء والشقاء فى الظلام والنور ، فى غزارة الوسائل الروحية كما فى شحها .

فالنفس التى صارت إلى مثل هذه البساطة ليست بعد قابلة للاغواء والضلال لأنها تتمسك فقط بمشيئة الله . هى دوماً فرحة دوماً غنية لا تتشكى من أى حرمان روحى لأنها لا تعرفه أبداً . انها تعيش فى فيض خيرات إلهها الذى يملؤها بمقدار استيعابها فى كل لحظة من لحظات النهار . وكالإناء الذى ملأه المحيط لم يعد لها ما تشتهيه بعد .

أيها الملء ! ما أقل معرفتنا بك وتقديرنا لك ! إن

النفوس تهلك من كثرة رغائبها المعاكسة لترتيب الله ، وتذيب ذاتها في جهود باطلة وشكاوى مرة .

فبعضها يطلب باصرار مزيداً من المناولات والاماتات والصلوات . وبعضها يتوق بقلق إلى العزلة والخلوة والصمت وغيرها يشكو من أعباء المشاغل وقلة الوقت والحاجة إلى مرشدين روحيين . وكلها تقريباً رغائب تعرضها أو حسرات وهموم تبديها .

أما أنا يا يسوع ، فأريد أن أسر بك وحدك وبمشيئتك الإلهية . انني لا أرغب في شيء ولا ارفض شيئاً ولا أطلب إلا ما علمتني أن أطلبه وأبتغيه : « ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض » . هذه هي حدود رغباتي لأنني أعرف أن الخير الوحيد المشتهى على هذه الأرض وفي الأبدية هو أن نكون لك .

أجل ، انني أتوق ولا شك أن أتناول جسدك ، وأن أقتنيك في قلبي ، وأن استسلم لمحبتك لي وانعامك عليّ ، لكنني لا أتوق إلى هذا إلا إذا كانت فيه مسرتك . وإن كان عليّ أن أعيش في القفر كالنساك من غير أن أسعد بتناولك كل يوم ، فقد أموت من التحول والشوق ، لكن لن تفلت أية شكوى من شفتيّ يا يسوع ، ولن يتحسر قلبي على شيء لأنني أعرف أنك أنت ارتضيت لي ذلك .

وأنا أتوق أيضاً بلا شك يا يسوع ، إلى العزلة والخلوة فهي تجتذبني وأشعر بك فيها أقرب إليّ وأكثر حباً وألفة ، وتغمرني فيها عظمتك بنصيب أوفر حتى يجيش قلبي تهليلاً ولكن إن أردت أن تبقيني في ضجيج الأعمال ترهقني المشاغل والارتباكات والمكاره المختلفة ، فأنا أرتضيها طائعاً يا إلهي لأن « يدك هي التي تمسكني فيها » .

سأكون سعيداً ولا شك عندما تضع عنايتك في طريقي نفساً تحبك أنت وحدك وتقودني نحوك وتعلمني حبك وتصلح نقائصي فأشكر لك أيها السيد هذه النعمة لأنني أعرف أنه ليس أثمن من مرشد خبير وأب محب . ولكن إن أبعدته عني واجب ، أو فرقتني عنه مقتضيات مشيئتك فلن أتشكى لأنني أعرف يا رب أنك أنت وحدك تكفيني وأنك تقيم عند الحاجة من الحجارة رجالاً قادرين على مساعدتي وتعليمي محبتك .

يا يسوع إنني أتعلق بك وحدك بمحبة حارة واستسلام سخي .

## المقالة الخامسة

### النفس المستسلمة لله في علاقاتها مع العالم

على النفس التي بذلت ذاتها لله أن تعيش في هذا

العالم على طريقة البشر . فالله لم يعطها طبيعة ملائكية لا يشغلها سوى التفكير فيه ومحبته ، بل هى تعيش ضمن عائلة أو جماعة رهبانية أو مجتمع ، وهناك الكثير من علاقات الصداقة والمنفعة واللياقة والقرابة تربطها وتشغلها . هذا هو النظام الذى وضعه الله ولا سبيل إلى مقاومته . فالنفس لا تستطيع أن تتخلص من عبء هذه العلاقات إلا إذا توارت فى مغارة منعزلة لا يصحبها فى عيشتها الجديدة إلا وحوش القفر .

ومن هذه العلاقات ما هو مستحب وشريف يكون للنفس بمثابة لهو برئ وتسلية مفيدة ولازمة . ومنها ما هو ودى حميم كالبلسم للقلب الجريح والحافز للعزيمة الواهنة والمعزى للنفس الكسيرة ، ومنها ما هو غير ذى بال لأن الدافع إليه هو اللياقات والمصالح : وهى علاقات لا تدوم طويلاً لأنها غير ثابتة كالسبب الذى أوجدها . ومنها ما يجبر المرء عليه وتمليه الحاجة أو الخضوع أو الخوف وتفرضه الطبيعة أو المركز أو الأعمال أو البيئة .

إن كثرة هذه العلاقات وتنوعها يؤلفان بالنسبة للنفس المتفانلة عقبة كبرى لبلوغ القداسة .

فهى تمكن تلك العلاقات من أن تحيط بها كالشباك فتفقد فيها حريتها وانعتاق قلبها واستقرارها ، أى أساس كل حياة كاملة .

فتارة ترضيها هذه العلاقات وتفتنها وتتركها غافلة على حافة الهاوية ، وطوراً تشغلها وتزعجها وتقلقها وتسلبها وقتها وراحتها وأحياناً أخرى تعاكسها وتحزنها . وتثير فيها الحسد والبغض وتبعد أفكارها عن إله السلام .

فكيف تستطيع أن تتبع يسوع فى صحراء قلبها وتجلس هادئة عند قدمى معلمها وهى متعبة مأسورة تتجاذبها الأهواء ؟

فعلينا إذن أن نرتب علاقاتنا بحكمة مع الآخرين . إن النفس التى استسلمت بسخاء ليسوع لا تحب العالم ولا تخشى انتقاداته أو تأبه لسخريته ، كما أنها تعلو برفقة جناح على تعيير العالم لها أو عدم رضاه . وهكذا ، إذ تتيقن أنها تعمل مشيئة الله ، لا تألو جهداً فى السيطرة على عواطفها والاحتفاظ بهدوء فكرها واتزان تصرفاتها .

إن النفس الروحانية حقاً لا تكون ابداً اسيرة اى مخلوق مهما كانت صلتنا به مستحبة ومغرية ونقية . إنها لا تسلم ذاته بكاملها إلا ليسوع.. فهى مسكن الله ، خدر يسوع . وهكذا فإن القلب الذى هو لله بكامله يملؤه الله على الدوام . يملؤه يسوع ويفيض منه . ومن ثم ينسكب هذا الفيض على الخلائق المحيطة به .

ومحبة مثل هذه النفس البسيطة للخلائق لا تعادلها محبة ، ان فى نقائها أو فى ثباتها . فهى خالصة من كل أنانية لأنها من فيض حبها ليسوع . هذه المحبة غير معرضة للتغيرات ولا تخضع للأهواء وتقلبات المزاج . إنها لا تتأثر بمزايا الناس وجمالهم واستحقاقهم وصلاحهم فإن أساسها فى اللّه وحده . إنها تستغرب الخيانة والعقوق وقلة الأمانة لكنها لا تقنط لأنها من اللّه تنبع وتتدفق .

إن النفس الروحانية لا تسعى لاكتساب تقدير أى خليقة ، إذ هى تعرف جيداً أن لا حق لها فى ذلك فيسوع وحده هو سيد النفوس وملكها الأوحد الذى يحق له كل حب ومجد .

ومن جهة أخرى لا تجهل هذه النفس إن كل مجد بشرى زائل وقريب العطب والخذلان . فقد برهنت لها الخبرة إن ما من خليقة تستطيع أن ترضى القلب طويلاً أو تروى ظمياه إلى المحبة ، فالانسان يشعر بأنه مخلوق لغير المحدود .

## المقالة السادسة

### النفس المبذولة لله تتمتع بحرية مقدسة

هكذا تعيش النفس طليقة حرة فى خضم عالم من العلاقات المختلفة . فهى تسيطر عليها وتقودها وتحدد

نوعها وترتب أوقاتها وشكلها . هى تحس بأنها فوق الأمور المحيطة بها والتى تحاول أن تطغى عليها . فبذل ذاتها المتواصل ليسوع يقف حاجزاً منيعاً أمام هذه المحاولة .

ويظن العالم أحياناً أنه قد اجتاز هذا الحاجز . ولكن بينما هو يتصور أنه قد امتلك النفس وجرها إلى تياره . إذا بيسوع يدعوها إلى داخلها . إلى هذا الجزء الصميم الذى لا يستطيع العالم ولوجه ، فيفصلها عن اضطراب الخارج ويعيدها إلى هدوئها المعتاد . لا شئ يمكن أن يسئ إلى هذه النفس . فكما أنه ليس باستطاعة أى حب أو عطف بشرى أن يستعبدها كذلك لا يقدر أى عنف أن يخيفها ولا أية مصلحة أن تقيدها .

ما أروع رؤية نفس كهذه تعيش هادئة وسط عالم مضطرب معذب ! إنها كسنديانة جبارة وسط حرج تكاد الريح لا تحرك قمتها الجبارة ، بل تبقى ثابتة هادئة بينما ينحنى كل شئ حولها ويقلع ويكسر . وعندما تحمل زوبعة الأشغال العالمية النفوس الصغيرة فى التشتت والاضطراب تصمد النفس الروحانية غير متزعزعة وتظل جبهتها مرتفعة بفخر إلى السماء وقلبها متأصل فى يسوع .

آه ! ما أعظم سر الاحتفاظ بضبط الذات وامتلاك

القلب والسيطرة على العلاقات بدل أن يدعها المرء تطغى عليه وتقوده ! ما من أحد يستطيع التوصل إلى هذه السيطرة على الذات إلا الذى تخلى عن كل منفعة شخصية زمنية وعن كل تقدير بشرى وكل اهتمام بالمستقبل .

علمنى هذا السر الإلهى يا يسوع ! اربطنى بك بقوة حتى لا تستطيع اية خليقة ان تفصلنى عنك . انا اشعر باننى ضعيف كل الضعف . كل شئ يؤثر فىّ : نظرة من صديق ، كلمة مؤلمة ، ابتسامة . كل شئ يثير شجونى ويعكر صفوى . إن المصائب تهدنى والهموم توهننى والألم يثير أعصابى والمناقضة تغيظنى . بادرة ودية تأسرنى وحرمانها يشقينى . كلمة طيبة تنهضنى والمديح يستهوينى والاستحسان ينشطنى . وهكذا فأنا خاضع لانفعالاتى .

يا يسوعى ، اجعل فىّ ملكك المطلق السلمى . واطرد من قلبى أولئك الغرباء والباعة ، والصيارفة الذين يحولون مقدسك إلى سوق عامة . أعد إلىّ حرية ابناء الله التى جئت بها إلى الأرض . اجعلنى غير خاضع لأحد فى هذا العالم إلا لك ولكنيستك المقدسة ولا يكن للحياه البشرى أى سلطان علىّ .

هب لي ألا أبالي بأمور الدنيا ولا أتأثر بالاستحسان أو النقد وألا يلهيني عنك تعدد واجباتي وعلاقاتي .

## المقالة السابعة

### بذل الذات في غمرة الاشغال

لا تمضي كل النفوس حياتها في دير محاط بسور ، يحميها من تأثير العالم سياج النذور الرهبانية ، بل يعيش أكثرها في العالم فيما بين تيارات الأعمال ، منهمكاً في نضال لا يتوقف لتحصيل خبزه اليومي . إن الشواغل الخارجية تسترعي انتباهها كله . وهذه الشواغل التي تفرضها الطاعة أو ترسمها الحاجة أو يختارها الذوق الشخصي لا تلبث أن تتكاثر وتتنوع حتى تفوق طاقة النفس . فتقاوم هذه بلا جدوى تلك العراقيل ، ولا تتوصل إلى التوفيق بين الحياة الروحية وهذا النشاط الخارجي المضطرب . فالأعمال بدلاً من أن تدع روح الصلاة تتغلغل فيها تخنق بالحري هذه الروح أو ترهقها ، ولا تلبث النفس أن تكل وتتعب وتعلن أنها لم تخلق لحياة الصلاة .

وإلى جانب الانهماك وحمى العمل تأتي المعاكسات والمصاعب الملازمة للحياة التي اخترناها وللوظائف التي أسندت إلينا ، وهكذا تستنفد الاهتمامات الخارجية نشاط النفس وتجفف القلب وتنفره نهائياً من الحياة الداخلية .

يا يسوع ! إن هذا الخطر ، بصورة خاصة يخيفني ، فأنا أرى كثيرين يصطدمون بهذه العقبة فيسقطون أو يغرقون بطريقة يرثى لها . فهل تراك دعوتنا إلى الصحراء وكثرت لنا فيها المعجزات لتتركنا نموت فيها ، وهل يمكن أن تتسبب الأعمال التي نقوم بها لارضائك في هلاكنا ؟ أيها الرب يسوع ، لا تسمح بذلك بل علمنا كيف نعبر هذا البحر الأحمر الذي تهدد أمواجه بأن تغرقنا .

ماذا تخافين أيتها النفوس المخلصة ؟ اسمعي صوت المعلم فالخطر كبير ولا شك ولكن لا للقلوب الحليمة .

إن الأعمال ليست هدفاً بل وسيلة أعطيت للنفس لتبرهن لله عن محبتها . فيجب إذن أن نمارسها ، ولكن باعتدال . فإذا خيرنا في أعمالنا ، لا نأخذن إلا التي لا تلهينا ، أو قلما تلهينا عن الله . يجب إذن استعمال بصيرتنا .

لكننا نجد بين الأتقياء من لهم الحرية التامة في تنظيم وظائفهم وتحديد شواغلهم ، ومن ذلك تتقاذفهم أمواج أعمالهم المتزايدة دوماً فمن ترى يلزمهم بكل هذا ؟ – ما من أحد . فيا للمتهورين المساكين ! إن الهاوية ليست بعيدة عنهم ، وهي تنتظرهم لتبتلعهم .

من تراه يجهل أمثال تلك السقطات الجديرة بالرثاء

بل أمثال ذلك النوع من الجحود المتأتى عن الافراط فى العمل ؟ وعند هذا تختصر فى بادئ الأمر الصلاة والتأمل وتمارين الحياة الروحية ومن ثم تلغى ،

بيد أن الانسان العاقل يتذكر دوماً أن هناك شيئاً واحداً ضرورى ، هو بذل الذات لله .

إن ملأنا العالم بسطوع معارفنا وأدهشنا الحكماء بعمق مباحثنا وإن أثرنا اعجاب الشعوب وتقديرهم بخدماتنا الجليلة . مدفوعين إلى كل هذا بعوامل بشرية لا تؤدى لله مجداً بقدر ما تؤدى بمحبة بسيطة .

إن زهونا لعلى ضلال : فوجودنا على هذه الأرض ليس ضرورياً ، والله قادر أن يسوس الكون بدوننا ، وستتابع الكواكب بعد موتنا سيرها فى رحاب الفضاء ، وتواصل الممالك تتبع مصيرها على هذه الأرض ، فماذا نستطيع أن نغير فى ذلك من تلقاء ذاتنا ؟ إن مكانتنا ضئيلة على هذه الأرض وتاثيرنا محدود جداً ، ما لم نكن لله جسداً وروحاً ، ما لم نكن بين يديه أدوات لا حد لطواعيتها ، ما لم نتخل عن ارادتنا الخاصة ، ما لم نعمل إلا بوحى العناية الإلهية التى ترتضى أن تستخدمنا لبلوغ مقاصدها .

حينئذ يكون عملنا هادئاً لأنه يكون معتدلاً ، ومستمراً لأنه حلو ، وخصيباً لأنه إلهى .

لكن النفس قلما يمكنها اختيار أعمالها ، فغالباً ما تفرضها عليها الطاعة ، كثيرة صعبة . والله يسمح بأن تفوق هذه الأعمال مقدرتها ، وألا تستطيع ، رغم رغبتها المخلصة ، أن تتممها كلها فى الأوان المناسب . ومع ذلك فالطاعة هى التى تريدها . فما أكثر النفوس المسكينة التى وجدت ذاتها مرتبكة أمام هذه المعضلة .

أجل ! إن أعمالك تفرضها عليك الطاعة ، والله يريد أن تنكبى بعناية على تتميمها . هو يريد الا تضيعى لحظة فى شواغل لم يأمر بها . فمتى فعلت هذا قمت بواجبك .

فاعملى إذن وتصرفى كأنه ليس لك عمل آخر لهذا النهار . اعملى بنشاط بلا كسل ولا إبطاء ، ولكن لا تقلقى ذاتك بالرغبة فى انهائه . وعندما تنهين أول عمل ارفعى عينيك برهة نحو المعلم الإلهى ثم ابدئى عملاً آخر . فالله يريد أن تبقى مشغولة ولا يريد أن تتممى ما يتجاوز الحد . فإن كان ثمة أشغال لا تستطيعين اتمامها مع ما تبذلين من عناية هادئة وانكباب رصين فاطمئنى لأنك قد اتممت مشيئة الله إذ بذلت يومئذ كل ما فى طاقتك ، ويسوع راض عنك .

لكنى أعرف أن البشر قد لا يحكمون على هذا النحو ، وأن بعض الرؤساء القليلى الحكمة يطلبون أحياناً أكثر

مما يطلب الله ويظهرون استياءهم . وهذا أصعب موقف تستطيع أن توجد فيه نفس ورعة تريد أن ترضى الذين اقيموا رؤساء عليها ، وأن لا تلحق ضرراً بحياتها الروحية .

فعلى النفس أن تبذل كل ما فى طاقتها من غير قلق أو اهتمام . وإن كان عليها أن تتحمل لوماً أو تخضع لتقريع بسبب عمل لم يكن عدم انتهائه ناتجاً عن تقصير منها ، فهى تتقبل هذا الصليب الصغير كدليل محبة خاصة من يسوع لها . فإن السلام الداخلى والتسلط على الذات يساويان التضحية بتقدير البشر ومودتهم . وهكذا تستفيد النفس من ناحيتين إذ تحتفظ بسلامها الداخلى فى غمرة الأشغال كما تحتفظ به إبان المهانة فتجدد فى كلا الحالين بذل قلبها لله .

ومن النفوس من يمكنه اختيار مشاغله ، ومنها من يعيش تحت الطاعة ، ومنها من تحدد اعمالهم ظروف معيشتهم أو حالتهم الاجتماعية . إن السعى وراء المعيشة اليومية والاهتمام بالعيال والقضايا المهمة والشواغل المتنوعة تستغرق أوقات اكثر أهل العالم وانتباههم . ومع ذلك تستطيع النفس الصالحة أن تنجو هنا أيضاً ، من الخطر الذى يهدد حياتها الروحية .

عليها أن تتذكر أقوال يسوع : « لِمَ تهتمون للغد ، ولم تتساءلون بقلق : ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ؟ فهذا كله تطلبه الأمم ، أما أنتم فأبوكم السماوى عالم بما تحتاجون إليه . فلا تهتموا أبداً . بل أنظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ، وأبوكم السماوى يقوتها . اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم (١) » . تلك هي حكمة الانجيل ، هذا هو صوت يسوع العذب يطمئن النفس المستسلمة له .

فلا تتسرعى أبداً يا نفسى ولا تدعى الأعمال تشغلك مهما ظهرت لك ملحة هامة . اجتهدى فى أن تكونى معتدلة في تصرفاتك كلها . ولتكن حركاتك وطريقتك فى الكلام دليلاً على نفس تمتلك ذاتها ، فمظهرك الخارجي يؤثر في داخلك فتصبحي دوماً هادئة وسيدة ذاتك .

ولو أعطى لك أن تسوسى مملكة فهذا الاهتمام ليس من شأنه أن يجعلك تفقدين راحة قلبك لأن نفسك أثمن من ممالك الأرض كلها فأقيمى يسوع عليك سيداً ودعى له الاهتمام بمصالحك كلها ثم أحبيه قدر استطاعتك . فلن يقال إن العروس شكت الجوع والعطش فى قصر الملك عريسها .

---

(١) مت ٦ : ٢٥ – ٣٤ .

# الفصل الثالث

## ممارسة بذل الذات إبان المحن

## المقالة الأولى

### بذل الذات والتجربة الداخلية

إن يسوع بستاني خبير ، يسهر على الأشجار المثمرة التي غرسها أبوه ويشذبها كما يناسب . والنفس تعرف أنها موضوع اهتمامه الإلهي فتكتفي بأن تنمو فتكسوها الأوراق والأزهار والأثمار . إنها لا تتساهل متى يشذبها المعلم وينزع عنها الأغصان الميتة ، بل تنتظر بصبر ، لعلمها أن يسوع يسهر عليها وأنه يرسل إليها صليبها العزيز في الوقت المناسب . إنها لا تحدد شيئاً ولا تعين نوع العذاب الذي يرسله الرب إليها ، فهذه جسارة وفضول ، فهي تترك له ذلك لأن كل ما يفعله حسن .

إن الصلبان التي يرسلها يسوع إلى النفوس ليقودها في طريق الكمال عديدة ومتنوعة . والنفس لا تعرف أيها قد خصص لها ، فتتقبلها كلها سلفاً لذلك عندما يتراءى لها يسوع حاملاً الصليب تسرع إلى مساعدته في حمله .

كيف نصف بالتفصيل المحن التي ينعم بها يسوع على النفوس ؟

فهي لا متناهية في تنوعها ومطابقة لحاجات كل نفس

ومنتقاة بحسب سمة الجمال الخاص التي يجب أن تزينها .

إن يسوع يسر خاصة بتنويع التجربة الداخلية . فهنا في داخل النفس لا يلاحظ عمله ولا يراقب ولا يعاكس إلا قليلاً ، هنا يستطيع أن يبتر ما هو زائد في صميم القلب وينزع منه كل جذر غير نقي ويخرج منه كل عصارة غريبة .

وكثيراً ما يستخدم يسوع قلق الضمير والشكوك في خلوص النية وفي قيمة الأعمال الحسنة . فتتألم النفس ألماً لا حد له مؤكدة لله محبتها وأمانتها على الدوام .

وتبلغ المحنة أقصى درجة من الخدمة عندما تقتنع النفس بأنها عدوة الله ، بأنها قد خانته وهجرته ، وتحسب أن الله يتركها بدوره وأنه يحوّل عنها وجهه ويسلمها إلى أعدائها وأن غضبه يلاحقها .

ولكن ما الفائدة من الوصف ، فإن اللّه قد اختص هذا الأمر بذاته انه يريد ان يكون حراً وأن يعمل وحده في داخل النفس . ولا يتمكن أحد من تفسير ما يحوطه اللّه بالأسرار ، ولا من ادخال التعزية إلى حيث يريد اللّه أن يبعدها .

أما واجب النفس المستسلمة لله فهو أن تجدد بذل

ذاتها فى هذه الأوقات العصيبة . والله يترك للنفس تلك القدرة السامية على أن تستسلم له بفعل ارادتها . وهو يحرمها ولا شك عزاء فعلها ويخبئ عنها صلاحه لكنه يساعد دائماً على تتميمه لأن فى ذلك جوهر الحياة الروحية .

ومتى قامت النفس بهذا الفعل ، لا يتبق عليها سوى ان تتألم وتنتظر وتصبر . إن كمالها كله قد تحقق فى البرهة الحاضرة ، والله يعمل فيها وينقيها ويرميها فى البوتقة مستعملاً على التوالى ، الحديد والنار . ويتطاير الشرر ولا شك تحت ضربات مطرقته الإلهية المتتابعة لكن الحديد يبدأ فى اتخاذ شكل ما . ولا يلزم إلا قليل من الصبر حتى يتم الله تحفة جديدة . حينئذ تتوقف المحنة فجأة لأن الله ، بعد أن يبرد غليل النفس وينعشها يعيد إليها قواها ويمزق الغشاء الذى كان يحجب بصرها ..

إنك تصلب يا يسوع بطريقة عجيبة . فلم لا افهم أنه ينبغى لى ان اتركك تتمم فىّ عملك فى هذه الأوقات الأليمة ، من غير تشك ولا تذمر ، وأن أجيب عند كل شدة جديدة وكل محنة اشد ايلاماً ، بفعل خضوع اكثر حباً ؟

## المقالة الثانية

### يجب أن تتعالى النفس النقية على المحنة عينها

إن المحنة الداخلية مفيدة ، ويسوع يشرك فيها كثيراً

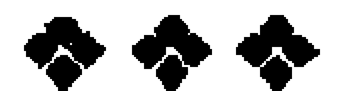
من النفوس . لكنه لا ينعم بها عليها كلها ، ولا لزوم أن يحصل ذلك . فليس من شئ لا يمكن الاستغناء عنه ، حتى المحنة الداخلية ذاتها ، وهناك نفوس تقلق لعدم وجود أسباب تقلقها وتضطرب من الهدوء الدائم الذى يسود فيها وتتألم من الفرح غير المنقطع الذى يغمر قلبها . إنها تكاد تشكو اللّه بأنه لا يحبها ولا يريد أن يرسل لها صليبه الحبيب .

أما القلب البسيط فلا تراوده مثل هذه المخاوف . وهو يحب الصليب ومتى ظهر له يتقبله كأخ عزيز ويضمه إلى صدره كباقة زهر بعث بها يسوع ، لكنه يعرف أن يرتفع فوق الألم نفسه . فالألم ليس هدفاً وإنما هو مجرد وسيلة محبوبة ولا ريب ، والنفس لا تتعلق به أكثر من تعلقها بتسليات هذا العالم وأفراحه ، فدورها هى ، أن تبقى حرة وتنطلق وتطير فى أجواء المحبة . وهى لا تحتاج من أجل هذا إلا إلى أجنحة يعطيها إياها يسوع .

قلباً نقياً اخلق فىّ ، أيها المعلم الإلهى ! فالقلب النقى لا يعرف قيوداً ولا يصادف عقبات البتة فى ارتفاعه نحو اللّه .انه ليس اسيراً لأية خليقة ولا هو تحت رحمة أى حادث ، لا يقيده أى شوق ولا يأسره سوى النزوع إلى أن يكون ليسوع . لقد حطم آخر رباط ما برح يقيد بعض النفوس الا وهو التعلق بطرق الكمال ، ومنها الألم .

ومن الآن فصاعداً لم يعد أى شئ يهم النفس ما دامت تحب يسوع ، كل شئ يحسن فى عينيها ما دامت تستسلم له انها لا تطلب العذاب إلا إذا أوحى إليها معلمها بذلك فهى تعلم جيداً أن يسوع يحبها كثيراً ، لذا لن يستثنيها من العذاب إن كان ذلك ضرورياً لها . وهى تبتهل إليه فقط أن يعطيها القوة لتتحمله وتشكر له عطيته .

دورها هى ، أن تقنع بما تقدمه لها اللحظة الحاضرة من هين وصعب ، من حلو ومر . وتظهر حياتها تافهة لها وللآخرين أيضاً . لكن هذه الحياة هى فى الواقع أسمى ما يمكن على هذه الأرض . وكثيراً ما يجنبها يسوع الألم ، لقد جعل الصليب لتحطيم القيود وتنقية القلب . وأما هى فما من قيود توثقها ، وقلبها بسيط ومستقيم لا تجد فيه نار الألم ما تلتهمه ، بل هو يتحول إلى جمرة من الحب الإلهى هادئة لذيذة . وتلج هذه الشعلة اللطيفة إلى صميم النفس وتنقيها يوماً بعد يوم من النقائص والهفوات الملازمة للطبيعة البشرية ، وتنيبها على مهل كمحرقة زكية الرائحة .



## المقالة الثالثة

## يجب علي النفس المستسلمة لله
## أن تتوقع الاضطهاد

« إن جميع الذين يريدون أن يحيوا بالتقوى فى المسيح يسوع يضطهدون » (١) . ذلك ما يقوله القديس بولس بوحى الروح القدس . إن النفس الصالحة بالطبع تتصور فى بادئ الأمر أن كل ما فى الحياة يبتسم لها ، فتستسلم لها بنية سليمة لما يعجبها ويستهويها وتحسب أن الناس أجمعين مستقيمون وبسطاء مثلها . لكن هذا الوهم لا يدوم وا أسفاه إلا قليلاً إذ لا تلبث أن تتبين أن المحبة التى تعامل بها والمودة التى تظهر لها ليست صافية ، بل غالباً ما تكون إلا طلاء ومظهراً بل ستاراً تتخفى وراءه أنانية بشعة .

وكلما عاشرت الناس اكتشفت فى معظمهم برودة قلب وضيق مشاعر وصغر نفس . وهى تلاحظ هذه النقائص حتى فى أولئك الذين يظهرون لها أتقياء ومثقفين ، كما أنها بعد طول الاختبارات الشخصية ، لا تلبث أن تلاحظ هذه الأمور فى ذاتها .

---

(١) ٢ تيمو ٣ : ١٢ .

إنهـا ليسـت في ذلك على ضـلال لأن كل إنسـان بطبيعـتـه محـدود من كل النواحي : مـحـدود في ذكـائه وفطنته ، محدود في تفكيره وأحكامه .

إن القلب البشرى مفعم بالأنانية ، والفكر كذلك طافح بالطمـوح . وا أسـفـاه إن صـغـر النفس وضـيق النظر والتصلب في الرأى يشوه أفضل النفوس . ولا ريب أننا لا نكون في غـالب الأحيان مـسـؤولين عن هذه العـيوب ، ولكنها في الواقع حقيقية وكثيراً ما توجد الصعوبات في توطيد عـلاقـات مـتـواصـلة بين الناس ، حتى الـروحـيين منهم .

ونحن نعرف أن النيات حسنة لدى الطرفين لكن أوجه النظر والأمزجة تختلف ، الإرادة جيدة عند هؤلاء وأولئك ولكن تقدير الأمور يتنوع وكثيراً ما يتناقض .

ولو أن الصعوبة تنحصر فـى هـذا التصادم البسـيط أو فى اختـلاف المزاج وتباين الرأى لكانت مـحـتملة إذ لا يلزم للتغلب عليها إلا فضيلة عادية . لكن هذا التباين الخفى فى العـواطف والأحكام ينفجـر فى تـنافـر سـافـر وذم صريح ، وفـى مقاومـة أو اضطهاد مكشوف فترى النفس الحسنة النية أنها أصبحت مشتبهاً بها ومعارضة ومقاومة فى أحسن مـشاريعها وكـذلك النفس البسيطة التى تعـتقد أنها تتجه رأساً نحـو الله بارتفاع القلب ترى ذاتها موضـوع

شبهة ومراقبة وانتقاد : إذ لا يحتمل الناس أن تغايرهم في السلوك وتبتعد عن مجتمعهم ، فارضة على ذاتها ساعات خلوة وصلاة وممتنعة عن تسليات وعلاقات تحسب ضرورية .

والنفس التي تحركها غيرة شديدة تلقى المقاومة في مقاصدها فيهملها أفضل أصدقائها وينتقدها أجدر القضاة ويخونها أصفى أصفيائها : لأنهم يجدون تلك الغيرة عديمة التنظيم ، وذاك النشاط مفرطاً ، وهذا الاجتهاد والاهتمام جانحاً إلى الغلو . فينعتون ثباتها بالعناد وتواضعها بالرياء وصلابتها بالكبرياء ومثابرتها بالطموح المتستر .

ولا يكتفون بالأحكام والأقوال ، بل إذا ثابرت النفس على سلوكها هذا ، فإن الاضطهاد يبدأ تارة متستراً وطوراً سافراً وتستعمل كل الوسائل للنيل من النفس وشلها : كالسخرية والوشاية والافتراء أحياناً . ومن يعرف أكثر من النفس التي كانت ضحية ذلك ، كم من الوسائل يستطيع الخبث البشري أن يخترع ، وكم من الأسهم يستطيع اطلاقها ، وكم من الفخاخ يستطيع نصبها ، ليسيء إلى خصم مزعوم ؟

لكن الاضطهاد ليس له دوماً هذا الطابع المتطرف بل غالباً ما يبقى خفياً ، كما أن هناك نفوساً لا يستطيع النيل منها إما لأن وضعها الاجتماعي وأفضالها وحسن

سلوكها تجرد العدو من سلاحه وتشله ، وإما لأن حياتها الخفية المنعزلة تبعدها عن ضرباته . ومع ذلك يبقى أكيداً أن النفوس الروحانية بوجه عام يجب عليها أن تحسب ، عاجلاً أو آجلاً ، حساباً لمحنة الاضطهاد بشكل من الأشكال ، وأن تكون مستعدة لمواجهتها بما يؤول لخيرها.

## المقالة الرابعة

### تصرف النفس إبان الاضطهاد

يجب أن لا تدهش النفس عندما تلاقي اضطهاداً حتى إذا أتاها من أهل الخير ، بل يجب أن تقتنع بأن هذا الشقاء هو نتيجة حتمية لضيق أفق الفكر البشري وللأنانية الكامنة في قلب الانسان .

لو كان لكل الناس أفكار واسعة وكبيرة لكانوا كلهم متسامحين ، يحترمون آراء الغير وسلوكه ولا يتسرعون في إدانة نيات الآخرين وأعمالهم . لا أحد يتساهل مثل اللّه عن انحرافات الفكر ونقائص الطبع وتقلبات المزاج ، بل عن الخطايا الأخلاقية لأن أحكام اللّه لا متناهية في اتساعها وهو يكتفي من خلائقه بالارادة الحسنة .

أما الانسان الذي هو محدود من كل وجه ، فلا يتصرف على هذا النحو . انه ينظر إلى المظاهر ويتبع تأثراته الشخصية في ما يحب ويكره . انه يعترض على

كل ما لا يوافق أفكاره الشخصية وطريقته الخاصة فى العمل ويود اصلاح الأمور على هواه .

يجب أن تقتنع النفس اقتناعاً راسخاً بهذه الحقيقة . إنها لن تجد أحداً تستطيع ان تعتمد عليه بلا تحفظ فى موافقتها ومساندتها . إن أوفى الأصدقاء وأجدر المرشدين بالاعتبار . وأبلغ المسارين مودة . وأوفر الرؤساء عطفاً ورفقاً قد لا يلبون نداءنا فى الوقت الذى نعتمد فيه على نصيحتهم وسلطتهم . فما دامت النفس غير مقتنعة اقتناعاً متاصلاً بأن ليس لها ان تطلب عوناً من هذه الأرض ، فهى عرضة فى كل حين للصدمات وخيبة الأمل . فعلى الإنسان أن يختار بين اعتماده على اللّه واعتماده على الناس . إن طبيعة الانسان ضعيفة فى تكوينها بحيث لا يمكن الاعتماد عليها بثقة تامة ، واللّه هو الذى شاء أن تكون الأمور على هذا النحو لكى لا يكون للنفس فى آخر الأمر ، سند سواه ، ولا تستريح إلا فيه وحده .

فمتى بذل المرء ذاته نهائياً للّه لا يعد يأبه لاعتبار البشر . وانتقادهم وعنفهم وسخريتهم لا تستطيع من بعد أن تزحزحه لأنه لم يتخل عن كل شئ فى سبيل نيل استحسانهم أو كسب تقديرهم .

مما يستطيع العالم كله أن يؤذى النفس المستسلمة

لله ؟ فالنفس ليست بحاجة إلى العالم وإلى رضاه . وهى تعلم لن رأى الناس لا قيمة له أمام الله . العالم ليس قوياً إلا ضد من يخافه ، ومن يجابه تهديداته وصرخاته يجده عاجزاً .

يجب إذن أن تردد النفس دائماً فى أعماق قلبها : سيأتى زمن أجد فيه ذاتى وقد تخلى عنى جميع الناس وحرمت النصح والتشجيع وأصبحت موضوع شبهة من قبل رؤسائى ومرذولة من أترابى . ولكننى لن أخاف هذه الحال لأننى لست بحاجة إلا إلى يسوع .

ومتى تذكرت النفس ذلك وقت الصلاة تمتعت بحرية قلب كبيرة واستقلال عن كل تقدير بشرى . فإذا جاء الاضطهاد والتعيير وهجران الأصدقاء وعدم ثقة الرؤساء فالنفس لا تتأثر لأنها تجاوزت الأجواء التى تستطيع فيها الغيوم أن تلبد وجه سمائها . إنها تعيش فى أجواء صافية تسطع فيها الشمس دائماً . فيقف التناقض عاجزاً ويصبح الاضطهاد أعزل أمام هذا الصفاء وهذا الهدوء الذى لا يشوش . وهذ الثبات فى الطباع الذى لا يتقلب .

والله من جهته لا يترك النفس بلا عون . فكلما استسلمت له ازدادت حمايته لها . وكلما أهملت مصالحها الخاصة وتبريرها الذاتى عظمت عنايته بها وبتقدمها الروحى وهو يستخدم لتحقيق مآربه أعداءها أنفسهم

فيجعل من حسدهم وأحاديثهم الخبيثة وعنفهم وحيلهم أداة لإظهار براءة النفس المضطهدة وصوابية موقفها .

ما أعظم أسرارك يا رب ! ما على النفس إلا أن تستسلم لله وتضع بين يديه كل همومها ومصالحها ولا تحتفظ فى قلبها إلا بمحبته لتشعر السماء بأسرها أنها ملزمة تجاهها فتبادر إلى حمايتها .

إذن فسلوكى فى المعاكسات والاضطهادات بسيط جداً يا يسوع ! ليس عليّ سوى أن أرتمى بين ذراعيك ، أن أعهد إليك بحمايتى ، أن أحبك . السماء والأرض تزولان ولا تهلك النفس التى لجأت إليك .

هكذا مهمة النفس الروحانية ، لا تتغير أبداً إذ ليس لها إبان الازدهار والنجاح والهناء والنور وموافقة البشر سوى فعل واحد هو بذل الذات التام ليسوع . كذلك ليس لها فى غمرة الظلمات والشقاء والانتقادات والشدائد سوى شئ واحد تفعله : أن تبذل ذاتها لله بمحبة مضطرمة ذلك هو كامل سرها ومنتهى حكمتها .

## المقالة الخامسة

### بذل الذات وقت المرض

إن يسوع يمتحن النفوس وينقيها بطرق كثيرة مختلفة . فالمصاعب والاضطهادات والجفاف والوساوس

والأحزان الداخلية وخيبة الأمل وفقدان الثروة . هذه كلها وسائل بين يديه تعالى لقيادة النفوس إلى الكمال . قد يفهم بعض هذه النفوس محبة اللّه هذه فتدعه يشذبها حسب ما يشتهي ، وقد يدهش البعض الآخر ويتذمر ويبتعد من تأثير العمل الإلهي .

بهذا تفترق النفوس الباسلة عن النفوس العادية المبتذلة . فالمحنة واحدة والفرصة السانحة واحدة ، والاستعداد الداخلي وحده يختلف . هناك نفوس تملك استعداداً حسناً لتكون لله فتستسلم بهدوء لعمله متقبلة ما يقدمه لها من حلو ومر . وهناك نفوس أخرى تنقصها هذه الطاعة المطلقة والشاملة فتبذل ذاتها بتحفظ وتتراجع حالما تعاكس المشيئة الإلهية رغائبها أو تكبح مزاجها .

بعضها يثبت ناظريه في اللّه ، العلة الأولى لكل شئ ومنظم الأحداث ومقدس النفوس الأسمى ، وبعضها الآخر يعتبر الخلائق مسؤولة عن المصائب التي تلم بها .

لا يظهر الفرق بين النفوس الروحانية والنفوس الأخرى بأكثر جلاء مما يظهر في العجز والمرض . فالمرض محك القداسة . وبعض النفوس التي نحسبها راسخة في الفضيلة ونموذجاً يحتذى به في الدقة والنظام ، كثيراً ما تتهامل وتتراخى إبان العجز والمرض ، كما أن نفوساً قوية كالصخر كانت تظن ذات مبادئ لا تتزعزع

أصبحت يوم المرض فريسة أهوائها والعصوبة مزاجها .
كذلك رأينا نفوساً شجاعة صقلتها المحنة وقساها الاحتكاك بالمصاعب تتراخى فجأة وتلين كالطين بضغط الألم الجسدي والانزعاجات الناجمة عنه .

مساكين هؤلاء المرضى ! عجزهم مزدوج . انهم يبدون رغائب مدهشة ويطلبون أطباء وأدوية وعناية متواصلة وعوناً لا ينقطع . يتذمرون عندما ينقصهم شئ أو عندما يمنع عنهم بحق ، ويظهرون نفاد صبرهم عندما تطول مدة المرض . أليست لهم الوف الأعمال الهامة التى لابد من انجازها والوف من المشاغل الملحة التى لابد من قضائها ؟ يقولون فى أنفسهم : « هذا المرض مصادفة سيئة . لو أتى فى وقت آخر لقبلته بكل ترحاب . أما وقد شرعت فى تطبيق هذا المشروع فإنه غير مناسب ابداً » .

هذه النفوس لا ينفد صبرها فحسب بل تقلق قائلة : « من يدرى كيف ينتهى هذا المرض وأية مضاعفات قد تحدث وأية آثار قد يتركها فى جسمى ؟ » وإذ تقلقها هذه المخاوف تكاد لا تجد الرغبة والوقت الكافيين للقيام بتمارينها الروحية فتعجز كلياً عن الاتحاد بالله باستسلامها استسلاماً تاماً .

أما النفس المستسلمة للارادة الإلهية استسلاماً كلياً فتفعل عكس ذلك . لا تخاف المرض ولا تسعى لاتقائه

بحيطة مفرطة ، بل تراعي قواعد الوقاية العادية وتتكل ، لى ما تبقى ، على العناية الإلهية . ومتى أصابها المرض تقدم حياتها نبيحة لله ، طالبة إليه أن يتصرف بجسدها يبكل أعضائها لمجده الأعظم ، ثم تبقى ساكنة وتأخذ لعقاقير الموصى بها وتتبع تعليمات الأطباء وتخضع لما يطلبه المعتنون بها ، ولا تطلب شيئاً فوق هذا إذ قد بلغت كمالها في البرهة الحاضرة .

إن استعدادها الداخلي الذي لا يتغير هو أكمل تسليم لارادة الله ، ليس فقط في ما يختص بالمرض نفسه بل في ما يختص بالظروف التي يحدث فيها المرض والنتائج التي يحدثها . فالله الذي سمح بمرضها يريد أيضاً أن تعطل اهتماماتها وتوقف أعمالها .

هكذا تجد النفس البسيطة سلوكها محدداً في كل الافتراضات الممكنة . تكتفي بأن تكون كما يريد الله لها . همها الأوحد أن تحب الإله الذي استسلمت له ومهمة الله أن يدبر كل شيء .

## المقالة السادسة

## بذل الذات عند الموت

النفس البسيطة تكتفي بمحبة يسوع وتتميم مشيئته الإلهية في البرهة الحاضرة . هكذا تنقضي حياتها رتيبة

ولكنها سعيدة . فهى لا تشقى لأن الآلام تتحول عندها إلى أفراح ، ولا تهتم بشئ لأن يسوع يفكر بكل شئ تحتاجه ، ولا تخاف من شئ لأن كل شئ يأتيها عن يد يسوع الذى تحبه وحده .

هكذا تعيش النفس غائصة فى الله فى أغوار لا تدرك ، تستطيع ريح العاصفة أن تعبر بسطحها ، لكنها لا تستطيع تعكير قرارها الهادئ الصافى .

ما أشهى مثل هذه الحياة ، يا يسوع ! فضلاً عن أنها مقدمة نهاية أسعد .

منذ أن بذلت النفس ذاتها لله ، لم تفكر قط أن تنصب خيمتها على ذاك الطريق المؤدى إلى الأبدية . كل ما تفعله هو أن تتوقف برهة على حافة الطريق لتسترجع أنفاسها وتقيس بنظرها المسافة التى قطعتها .

إن النفس المسيحية الكبيرة تتهيأ بعناية لهذا العمل الأخير . هى تجرب أن تموت فى كل برهة وفى كل لحظة تنكر ذاتها ، وتضحى لله بكيانها كله وبكل ما هو لديها وبكل ما يمكن أن تحصل عليه يوماً . وتضحى له بحياتها ليعود فيأخذها فى الوقت الذى يختاره هو وفى الظروف التى يحددها هو . كل برهة من حياتها موت مقبول مسبقاً . عيشة المرء على هذا النحو موت بلا انقطاع ومتى جاء الله أخيراً ليقول : « يجب أن تموتى » ، فبم

يمكن أن تجيبه النفس عروسه بغير ما يلى « أيها المعلم الصالح إننى لا أفعل شيئاً آخر منذ سنين » ؟

أجل أيتها النفس المسلمة ليسوع ، حياتك موت دائم وتضحية لا تنقطع بذاتك كلها ، وذبيحة دائمة . وهذه الذبيحة تنتهى على فراش موتك . والضحية وكذلك الكاهن المضحى هما أنت ذاتك ، وقد اتحدت بيسوع رأسك . فارتضى بذبحك ، إذ أنه لشرف لك أن تضمى تضحيتك إلى تضحية يسوع . من موتك البطئ الشاق تنبع الحياة لك وللآخرين . إنك تفتدين العالم مع يسوع ومعه تكفرين عن خطايا البشر ومعه تقدسين النفوس .

وهكذا ، سوف يأتى يوم ، وربما كان قريباً ، تموتين فيه .

مالك ترتعشين يا نفسى لهذه الفكرة ؟ سيأتى يوم تقولين فيه : « سأكون بين ذراعيك بعد قليل يا يسوع لقد انتظرت طويلاً هذه البرهة اللذيذة وما هو إلا قليل من الوقت حتى ينهار الحائط الذى يفصلنى عنك فارتمى على قدميك وتضمنى إلى قلبك الإلهى . لقد دام طويلاً زمن الغربة يا يسوع . فاضطرت النفس عروسك أن تنتظر طويلاً وأن تكابد كثيراً من المعاكسات وتتحمل كثيراً من السخريات ولكن ها هى قد افتقدت وكوفئت » — لا لم يكن عريسها نائماً : بل كان ساهراً عليها يحافظ بغيرة

على جمالها وبراءتها ونقائها . إن السماء في عيد والقديسين يتهيأون ليدخلوا العروس إلى رحاب الملكوت السماوي .

إنها تترك هذه الدار الكئيبة غير آسفة فهي لم تحس فيها يوماً أنها في مكانها وطالما راودها الشوق إلى السماء ، كثيراً ما طعنت قلبها الاهانات التي وجهت إلى يسوع في أرض الخطيئة هذه . كثيراً ما سممت خياناتها الشخصية أفراحها .

لكن قد انتهى كل هذا ومضى الشتاء ، وانقضى زمن الثلوج والصقيع وها هوذا الربيع مقبل والعصافير شرعت في ارسال تغاريدها . ويسوع يقبل ليقول لعروسه الأمينة : « هلمي إليّ من لبنان أيتها النفس حبيبتي وتعالي بقربي فأكللك بالمجد » .

وداعاً يا أرض الغربة فقد طالما بللتك دموعي ! وداعاً يا أصدقائي المخلصين ، يا إخوتي وأخواتي الأحباء الذين سندوني بأمثالهم وشجعوني بأقوالهم . وداعاً يا جسدي الذي تنهار جدرانه أخيراً ، إنني أغادركم غير آسفة وأذهب إلى النور ، أذهب إلى المحبة ، إلى الحياة ، أذهب إلى يسوع .

أيتها العذراء المباركة ، افتحي بسعة باب السماء عندما يقف ولدك على عتبة الأبدية . أيتها الأم الحنون تقبليني حينئذ بحنو وقوديني إلى يسوع .

# القســم الثالث

## نتائج بذل الذات



# الفصل الأول

## حياة المحبة

## المقالة الأولى

### محبة متبادلة بين يسوع والنفس

متى استسلمت النفس أعطى يسوع ذاته بدوره . ذلك هو المبدأ الذى يسوس كل صداقة ، وليس صديقاً مثل يسوع .

وعطاء المعلم الإلهى هذا فائق للطبيعة كعطاء النفس وأكثر منه أيضاً . إنه يفوق عادة إدراك الحواس ، وليس للعقل إلا أن يستشفه فيما يكون الإيمان موقناً به ، كما أن القلب النقى كثيراً ما يختبره فى الصميم ويتمتع به تمتعاً فائق الوصف بفعل مبادرة رقيقة من يسوع غير أن هذا التمتع ليس فى الواقع عطاء يسوع ، ولا هو يدل على قدره ، بل إنما هو أريج العطر السماوى الذى يحيط بقوى النفس ويتغلغل فيها .

وكما أن القلب يبذل ذاته بكامله ، كذلك لا يترفع اللّه عن بذل ذاته بكامله ، فيأتى اقانيم الثالوث الأقدس الثلاثة ويسكنون فى النفس ويفيضون فيها عطية النعمة المقدسة التى ترفعها إلى مستوى اللّه . وهذه النعمة تجعلها ابنة بالتبنى للآب ، وأختاً ليسوع وعروساً للروح القدس ، وتجعلها وارثة للسعادة وملكوت اللّه .

إن مرة واحدة تبذل بها النفس ذاتها حقاً يكون مدعاة لسخاء عظيم من قبل اللّه . وكل جديد مهما كان سريعاً وضعيفاً تتبعه إفاضة جديدة للألوهية فى النفس المؤمنة . وكلما اجتهدت هذه فى بذل ذاتها ارتضى يسوع بأن تستحوذ عليه ، وهو يدفع النفس من جهة ثانية إلى بذل ذاتها فيجرح قلبها عندما تتراخى ، بسهم محبة يجعلها تنتفض ، ويلقى عليها يسوع عندما تحس ببرودة حماستها ، شرارة من لهبه الإلهى تجعلها تشتعل .

تبارك اسمك يا يسوع ! كم من السبل تهيئ لنا حتى نحتفظ بشعلة محبتنا . فتارة تحرك قلبنا وتملأه غبطة فنتصور أن هذا مكافأة لأمانتنا ، ولكن غالباً ما يكون هذا وسيلة لابعاد خطر عنا أو لتدارك سقطة أو لتوحى إلينا النفور من الأشياء الأرضية .

وأحياناً توقف عملك ، فيظهر أن تيارك الإلهى يتوقف فجأة فى عروقنا . فتحزن النفس وتقلق لأنها تظن أنك تبتعد عنها وتهرب منها لكنك لا تهرب بل تغور بزيادة فى أعماق النفس وتدعوها إلى جمع الحواس والدخول فى صميم كيانها ، وتدخلها إلى الخدر لتصفى حبها وتنقيه من كل شائبة . وعندئذ تستطيع يا يسوع أن تزداد بذلاً لذاتك وترضى حاجتك إلى العطاء . فإنك إنما تريد قلوباً

فارغة من ذاتها لتملأها محبة . إنك النبع الذى لا ينضب والكنز الخفى الذى لا يثمن .

إن الله هو الصلاح وطبيعته تدفعه إلى أن يبذل ذاته . هو المحبة وقلبه يدفعه إلى اضرام النار فيها . لقد أتى ليلقى النار على الأرض فهل يريد غير اضطرامها ؟

أيتها النفس المستسلمة ! لن يكون بعد بينك وبين يسوع إلا شئ واحد هو بذل ذاتك . وهذا الحب يسلمك إليه ويسلمه إليك . فانسى كل شئ آخر على الأرض ، وانهلى المحبة جرعات طويلة واشبعى من إلهك فشفتاك ملتصقتان بجنبه الإلهى ، تستقين منه الحياة وتثملين بمحبته .

آه ما اسعدك يا بنت الملك لا تلتفتى إلى الأرض فأنت نبيلة جداً وغنية . إنك تجلسين على مائدة ملك الملوك وتتنزهين فى جناته التى أضحت ملكاً لك .

## المقالة الثانية

## اللقاء العذب بين يسوع والنفس في القربان المقدس

إن الثالوث الأقدس يعطى ذاته للنفس المحبة ومعه تأتى كل الكنوز وتسكن فيها . لكن هذا العطاء روحى يفوق الحواس جداً ، والانسان ، مع الأسف ! يعيش كثيراً من

المحسوسات . وقد وجد يسوع وسيلة ليتجنب هذه العقبة بل ليزداد بذلاً لذاته . وهذه الوسيلة الفائقة الوصف هي سر « الأفخارستيا » . لابد أن يكون لمعلمنا قلب جد حنون عندما فكر في الأفخارستيا . ما أعظم ما كان ارتعاشه عندما فكر في النسيان المخجل الذى قد يلحق به في بيوت القربان ، وما أعظم ما كان انتفاضه فرحاً مسبقاً ، لدى رؤيته النفوس المزمع أن يسعدها حبه الأفخارستى حتى انقضاء الدهور !

يا يسوع ما عسانا أن نكون بدونك ، بدون حضورك الحقيقى ؟ كم تكون حياتنا عندئذ كئيبة وفارغة ! أين كنا نستريح في ساعات تعبنا ؟ أين كنا نجد التعزية في أوقات حزننا وإلى أين كنا نتجه بدون القربان المقدس ، عندما تعذبنا الكآبة السوداء وألم الحنين إلى الوطن البعيد .

تبارك اسمك كل حين لأنك أعطيتنا ذاتك بهذه الطريقة التى تفوق الوصف ، ونكاد نقول أيضاً بطريقة بشرية قريبة المنال لقلبنا . وهكذا فإنك تشترك معنا في كل أحزاننا وكل أفراحنا . وفي كل حين تتوق نفوسنا لتنسكب في قلبك . وأما أنت فتأتى كل صباح لتسكن فينا وتتجسد بصورة سرية بطبيعتنا مازجاً جسدك المقدس بطيننا وساكباً دمك الكريم في عروقنا . يا له من اتحاد عجيب مثمر ، به قلبك ينقى قلبنا ويؤلهه .

أيها الرب الحاضر فى القربان المقدس ! ما أوفر الهناء الذى تفيضه فى النفوس . وما أعظم المسرات التى تغدقها على بنى البشر لتكافئهم وتقويهم وتحفظهم . وما أكثر البطولات التى تثيرها بلا انقطاع فيهم !

أيها المسيحى الحقيقى العائش فى العالم ، المعرض للسخرية والاضطهاد ، بادر إلى اقتبال إلهك فى القربان المقدس ، فتتقوى وتحدق بالهازئين وتتحدى التنغيص والمعاكسات لتوسع مملكة مسيحك المحبوب .

وأنت أيتها الراهبة الساهرة دوماً عند أسرة المرضى تعاينين الجروح الكريهة والقروح البشعة والأمراض المنفرة ، ألا اقتربى أولاً من يسوعك وتقبليه بشوق مقدس ، ومن ثم ، واصلى ، قوية جذلة ، حياتك الرائعة فى التفانى حباً بمعلمك الذى تحملينه فى قلبك .

وأنت أيها الكاهن الغيور ، الرسول الجسور ، تذكر إبان أتعابك الرسولية بعيداً عن الذين تحبهم وقد تركتهم ، فى عزلتك ، بين اللامبالين وغير المؤمنين فى هذا العالم ، وسط المتاعب والصعوبات ، تذكر أن يسوع ، فى كل صباح عند دعوتك له ، ينزل على يديك المقدستين ليعطى ذاته بواسطتك للنفوس العطشى إليه ... عند ذلك تتمنطق بالقوة والشجاعة ولا ينالك تعب فى جهادك .

وأنت أيتها النفس العزيزة أياً كنت ، مجهولة ومختفية عن عيون الناس ، المنكبة على عمل شاق متعب ، ارفعى عينيك إلى القربان المقدس وليكن ملجأك إبان الحزن ، فيسوع حاضر هناك من أجلك . عندما أنشأ هذا السر ميزتك عينه الإلهية بين سائر النفوس وتأثر قلبه لمنظر أحزانك . فتقدمى إليه الآن وأنت أمامه ، غير هيابة ، لأن من حقك أن تنالى قوة وتعزية ويسوع يعرفك ويحبك .

يا صديق نفوسنا الإلهى ! إننا نعبدك باحترام ونحبك بحرارة ، ننحنى أمامك باجلال ونعانقك برقة وحنان ، نجثوا عند قدميك بتواضع عند نظرنا عظمتك وحقارتنا ونلقى جبهتنا بثقة بين يديك لأنك صديق نفوسنا وأخونا الحبيب . لقد أعطيناك كل شئ يا يسوع وإننا مقابل ذلك نمتلكك بكليتك .

## المقالة الثالثة

### الخدام الأمناء

فى بذل الذات درجات وكذلك فى عطاء يسوع . فبين القلوب المكرسة له والتى لا تحصى خدام أمناء وأصدقاء سريون وأبناء مستترون .

تلك مراحل ثلاث تقابل درجات الارتقاء إلى الله

وتؤلف سلماً فى الألفة التى تستطيع أن ترتقى بها كل النفوس إلى يسوع الذى يدعوها . إنه يعطى ذاته للنفس لدى أول محاولة منها لتكون له وذلك كما يعطى السيد الصالح ذاته لخدام البيت الأمناء .

إن فكرة الخادم الأمين لمعلمه آخذة فى الضعف فى مجتمعنا وهى تكاد تنحصر فى بعض العائلات العريقة فى مسيحيتها .

الخادم الأمين ينفذ الأوامر المعطاة بدقة ومحبة يحب معلمه ويفتخر بخدمته . همه الأساسى ليس الأجرة لأنه يعرف أنه لن ينقصه شئ . وهو يحس بأنه عضو فى الأسرة وأهل البيت يحوطونه بمودة ممزوجة بالاحترام

الخادم الأمين كنز ثمين وسيده يدرك ذلك ويعهد إليه بأعز مصالحه . هو يعرف أن أمواله فى أمان بين يديه ، بل يحتمل الموت عند الحاجة ليخلص معلمه . لذلك يوليه معلمه ثقة لا حد لها ويغدق عليه النعم والعطايا الجزيلة وكلما شاخ الخادم فى خدمته زادت محبة المعلم له وإكرامه إياه .

هذا هو نصيب كل انسان تخلى عن ذاته ليكرس نفسه لمصالح يسوع المسيح . هذا المعلم الإلهى يدخله خدمته ويعهد إليه بحاجات بيته ويستودعه مصالح مجده

والدفاع عن كنيسته ونشر الانجيل . ويكلفه بمحاربة الضلال ونشر الحقيقة وتشهير الرذيلة وتشجيع الفضيلة .

امثال هؤلاء الرجال يكونون فى الصفوف الأولى من جيش المسيح وهم يعرفون من غيرتهم التى لا تعرف الكلل ، وتجرّدهم ، وأمانتهم وإخلاصهم . إنهم ، كما يقول احدهم ، يخدمون اللّه بجسارة وعناد . هم لا يعرفون المساومات ولا المهادنة ، والأعداء يعلمون عنهم كل هذا ولذلك يخشونهم .

هؤلاء هم العمال الرسوليون المتأهبون دوماً لحمل نير يسوع والعمل على توسيع ملكه . تلك هى النفوس الصالحة المكرسة للّه والتى تقضى حياتها فى تعزية المنكوبين والاعتناء بالمرضى ونشر الايمان المسيحى . هذا هو الجيش العرمرم من الرجال والنساء الذين وقفوا حياتهم على أعمال البر . وجعلوا قواهم فى خدمة القريب ، وبذلوا أموالهم لمساعدة المساكين ، واستخدموا مواهبهم للدفاع عن الحقيقة .

إن يسوع يعرفهم كلهم بأسمائهم ، وهو فخور بخدماتهم ولهذا فهو يعاملهم كأبطال ، ويدخّر لهم الجزاء ، ويشحذ هممهم دوماً للعمل . لكنهم يعرفون أنهم

الخدام المحبوبون وإن المعلم يثق بهم . لذا فإنهم يُبلون بالحديد والنار ، من أجله . لا بل إنهم يريقون آخر قطرة من دمهم من أجل مجد اسمه .

وإن ليسوع عدداً وفيراً من الخدام الأمناء ، وهم يشكلون السور الخارجي الذى يحمى مدينة اللّه .

## المقالة الرابعة
## الأصدقاء الأصفياء

إن اللّه يعطى ثقته للخادم الأمين ، لكنه يعطى قلبه للصديق الخاص . والنفس التى أسلمت ذاتها مرة للّه ، تتوق إلى تجديد هذا العطاء . والشواغل والمعاكسات والآلام وأتفه حوادث الحياة اليومية تكوّن فرصة سانحة لتجديد بذل الذات للّه . فالقلب ، كالمادة القابلة للالتهاب ، تكفى أقل شرارة لاشعاله .

فمتى توصلت النفس إلى درجة المحبة هذه ، فإن يسوع يعاملها كصديقة . وليس من لذة تعادل لذة صداقة يسوع ، هذه الصداقة التى يدرك معناها الدقيق بالقلب لا بالعقل .

إن الصديق يعطى محبته ويسلم ذاته كلياً إلى هذه المحبة . أما السيد فيعطى ثقته ، ويكل بمصالحه إلى خادمه دون أن يطلعه على أسراره أو أن يقربه منه ليتحدث

إليه بالفة وبساطة ، فهذا الامتياز قد خصص للصديق الحبيب حسب قول يسوع (١) : « لقد دعوتكم أصدقائى لأننى أطلعتكم على كل ما سمعته من أبى السماوى » .

عجيب هذا التجاهل من يسوع لمقامه الإلهى ، فإنه يعامل النفس معاملة الند للند ! أليس فى هذا كل دلائل الصداقة الحقيقية ؟ فإن الأصدقاء متساوون ، أو يجب أن يصبحوا كذلك . ويسوع يضع نفسه حتى حقارتى ، ويرفع حقارتى حتى ألوهيته . السيد البشرى يبقى بينه وبين خادمه كرامة الرفعة والسلطان ، أما بين يسوع والنفس صديقته فيبدو أنه ليس هناك من حاجز ، بل فيض محبة واشتراك فى الأفراح والأحزان وثقة واستسلام تامان .

وبينما يكون الخادم منهمكاً ، بأمر سيده ، بالمشاغل الخارجية ، يتفرغ الصديق الجالس بالقرب من صديقه الإلهى للمناجاة الروحية . فبينما كانت مرثا منهمكة فى خدمة يسوع وتلاميذه كانت مريم جالسة بهدوء عند قدمى المعلم . فيسوع قد ألهم الأخت الكبرى نشاطاً معتدلاً ، وهو مسرور بخدماتها ، لكن ناظريه يستقران بحنو خاص على الأخت الصغرى . فالأولى أكثر نشاطاً ، أما

(١) يو ١٥ : ١٥ .

الثانية فأكثر محبة ، واحدة تجعل نفسها خادمة نشيطة والأخرى تتوق لتكون صديقة يسوع . وعندما ينهى المعلم كلامه ، تعود مريم إلى عملها ، بنشاط لا يقل عن نشاط أختها الكبرى ، لكن عملها يحظى بتقدير أوفر من يسوع ، لأنها أكثر محبة .

آه ! ما أسعد حال النفس صديقة يسوع ، فهو يطلب منها الشيء الأكثر عذوبة : المحبة ، أما من الخادم فيطلب الطاعة والأمانة أولاً ، وأما من الصديق فيطلب القلب . ومتى أعطى القلب مرة ، تصبح النفس ليسوع فتسعى لارضائه فى جميع رغباته . الخادم يحتفظ بحريته ، وأما الصديق فيضحى بها لارضاء صفيه وإعلاء مجده .

أيتها النفس العزيزة ، اقتربى من يسوع فصلاحه لا حد له ، وهو يحبك ويدعوك صديقته . إنك خاطئة ، ولا شك ، لكن محبتك كفيلة بأن تفتح لك أبواب صلاحه وسيغفر لكِ كثيراً إن استطعت أن تحبى كثيراً .

إن يسوع ينسى الخطايا وهو ، على عكس البشر ، لا يحفظ فى أعماق قلبه أية مرارة . يا يسوع إنى أومن بهذا ، أومن به إيماناً ثابتاً ولن أشك فى ذلك مطلقاً ، ألم أشعر بفرط صلاحك المرة تلو المرة ؟ ألم أسكب الدمع وأنا أقرأ وأعيد قراءة مثل الابن الشاطر وانجيل الراعى الصالح

وتوبة المجدلية وحنانك المؤثر تجاهها ؟ ما أعظم صلاحك يا يسوع !

إن قلبك تأثر لرؤية أرملة نائين المسكينة تتبع باكية جثمان ابنها الوحيد ، فأحييته . وفاض قلبك شفقة لرؤيتك حاجة الجموع التى هرعت إلى القفر لتسمع إليك ، فأشبعتها بأعجوبة . وتأثرت نفسك واضطربت لرؤية حزن مرثا ومريم فبكيت ، يا يسوع ، وأقمت أخاهما من الأموات . وتحننت على الجموع الهائمة كخراف لا راعى لها فأكثرت من جولاتك الرسولية فى فلسطين ناشراً العجائب وشاملاً باحسانك كل من صادفت .

وماذا عسانى أن أقول إن أنا عدّدت دلائل حنوك علىّ خاصة ؟ غير أنه لا بدّ لى من أن أصمت عن ذكر هذا ، أليس كذلك يا يسوع ؟ لا ! لا ! إنك عندما تجتذب القلب تقوده ، مختلياً به ، فتكشف له أسرارك بعيداً عن كل أذن غير كتومة .

يا يسوع ، إنى أتبعك فى خلوة قلبى وأسمع صوتك يدعونى هناك وأنا أعرفه جيداً ، فقد دعانى – وا أسفاه ! – مرات كثيرة دون جدوى ، وكثيراً ما خنقه ضجيج أشواقى الخيالية ومخاوفى الباطلة وشواغلى الطائشة . كنت على الباب يا يسوع تقرع وتنتظر ... وكل قلبك

العطشان إلى المحبة يطلب نفسى وأنا أتوارى وأتهرب . أما الآن يا يسوع فأنا لخصك . لقد أعطيتك ذاتى وأنت تقبلتنى بفرح ، وفتحت لى قلبك وأريتنى فيه مكانى الذى ظل شاغراً مدة طويلة .

إننى أريد أن أنسيك بفرط محبتى ذلك الانتظار الطويل المؤسف ، وأما صداقتنا فلن تعرف الأفول . فاشملنى بعينك الساهرة يا يسوع فأنا قد أسلمت أمرى إليك وهب لى أن أبادلك المحبة وأعوضك عن المساوئ الكثيرة التى اقترفتها تجاهك .

## المقالة الخامسة

### أبناء الله

هل تسمعين يا نفسى صوت الله أبيك ؟ إنه يدعوك إلى ألفة أعظم . فأنت خادمته وصديقته ، وهو يريد أن يجعل منك ابنته .

إن السيد يولى خادمه الأمين ثقته ويخص صديقه بمودته وأما ابنه فيشركه فى حنانه الأبوى . وهذا الاتصال الجديد البالغ العمق من قبل الله هو ثمرة بذل الذات الذى أصبح عادة وطبيعة يرد عليها الله بألفة من نوع جديد ، فيعامل النفس كإبنته المحبوبة .

إن الصديق لا يزور صديقه إلا فترات متقطعة والنفس

صديقة الله لا تستطيع أن تخاطبه بطريقة مستمرة ، فالشواغل والمهام والمتاعب تمنعها عن ذلك . وهى تسهر بعناية على الإكثار من تمارينها الداخلية وتأملاتها وفحص ضميرها وقراءاتها الروحية .

أما الابن ، فهو لا يترك البيت الأبوى إذ انه ليس ضيفاً بل ابن البيت ، وهو لا يقوم بزيارات لوالديه بل يمضى حياته بقربهما ، فيعمل ويلهو فى كنف والديه ورعايتهما .

والنفس ابنة الله تقوم بما يفرضه عليها الواجب ، وفى ما تبقى فهى تلتصق بالله بحرية تامة وتقرأ فى عينى ابيها حتى اقل الرغبات وتتممها حالاً . وعندما تتمم هذا الواجب ، غالباً ما يدعوها الله إلى ان تزداد قرباً منه .

والنفس الطيعة تستسلم لكل مظاهر حنان إلهها . فلا تفيض بأحاديث باطلة او بسيل من الأقوال بل تريح نظرها بهدوء وحب فى عينىّ ابيها ، ففى هذه النظرة البسيطة كل قول .

على الصديق أن يسهر على مصالحه الشخصية وعلى مصالح أسرته ، وأن يحسب وينظم نفقاته ويرتب ميزانيته . والنفس صديقة الله لا تتخلى عن الاهتمام بتقدمها فى الحياة الروحية بل توجه كل جهودها إلى التقدم وإلى تقليل خطاياها وإلى اشعال حبها لله فى كل

شؤون الحياة . فحياتها تمرين وصراع وعمل لا يتوقف .

اما ابن الله ، فهو لا يحتقر هذا الجهد الشاق ولا يستخف به لكنه يعتبر ان هذا العمل ليس من اختصاصه . فهو ابن البيت ، والأب والأم يعتنيان بشؤونه التي هي شؤونهما . إنه ينفذ بطيبة خاطر ما يأمره به ابوه . وإن اخطأ تداركت أمه الحبيبة كل شئ . ليس له أن يحتاط للمستقبل او يهتم به ، بل أن يرضي اباه ، وأن يحبه في كل لحظة وان يظهر له ذلك بالحنان الذي لا حد له وبالطاعة العمياء .

إن حياة أبناء الله الحقيقيين تخفى على عيون الناس . فالله يخفي هذا الكنز عن الأنظار الغريبة . ثم إن العالم لا يفهم حياة تقضي كلها في خدمة الله ومحبته . انه يهزأ ببساطة الصديق الذي يحتقر خيرات هذه الدنيا . وكذلك النفوس المسيحية العادية لا تدرك أكثر من سواها سمو حياة مكرسة ليسوع ، فتظهر لها النفس الهائمة بالله عاطلة عن العمل وغير نافعة للأرض . إنهـا تبحث عن النشاط والحركة والعظمة ، أما الحياة التي كرست لخدمة الله في الخفاء والعزلة ؛ فتظهر لها بدون قيمة أو نفع للكنيسة .

والنفوس الصالحة والعزيزة على الله ، التي لم تصل بعد إلى القمم التي يقطنها أبناء الله قد تعجب هي أيضاً

أحياناً لبساطة حياتها . انها تظن أن القديسين يتميزون بخدمات ممتازة أسوها للكنيسة ، وبفضائل باهرة ، ثم تلاحظ أن كل شئ فيها هو على عكس ذلك بسيط ويكاد يكون عادياً فتتساءل أين الفضيلة ، أين القداسة ؟ إنها لا ترى إلا أعمالاً عادية ووجوداً عادياً وشواغل مبتذلة ، فليس هناك من تقشف أو صلوات طويلة لأن نفوس أبناء اللّه تكتفى بأن تسير سيرة العامة من سواد الناس . إنها بشوشة بالحقيقة ، ومهذبة ومحبة ، لكنها قلما ترى فى المجتمع ، كما انها تكون احياناً قليلة الاطلاع على الحوادث الجارية والمجاملات العالمية واحياناً لا يكون لها تأثير فى أترابها ، ولا أهمية ولا شهرة .

يا إلهى ، ما أكثر ما يخطئ الناس فى تقدير استحقاق أبنائك ! ان هذه الحياة البسيطة والخالية من الأبهة ، المستسلمة كلها لمحبتك هى الحياة المتسترة مع يسوع المسيح فى اللّه ، هى الحياة التى عاشتها الأم المعظمة ، سلطانة القديسين ، هى صورة طبق الأصل لحياة يسوع البسيطة والمجهولة .

صحيح إن هذه الحياة المنسية والمزدراة والمعذبة كانت عثرة لليهود وجهالة للأمم (١) . وصحيح أيضاً انها فى

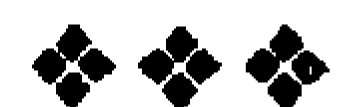
---

(١) ١ كو ١ : ٢٣ .

عصرنا هذا هدف للسخرية والتحقير من قبل حكماء العالم ، ولكن هل هذا يقلل من قداستها وسموها .

أيتها النفس السعيدة ، ابنة اللّه المستترة ، ما أقل اهتمامك بأعمال أبناء هذا الدهر وسخريتهم وهزئهم ! إنك تعرضين عن نمهم وافتراءاتهم ! إنهم لم يدخلوا يوماً القصر الذى تسكنينه فأعينهم لا تستطيع تحمل البهاء الذى يسطع به هذا المسكن السماوى وآذانهم لا تستطيع سماع اللغة الإلهية التى تسمعينها هناك . إنك تنتمين إلى عالم آخر غير عالمهم وتعيشين متسترة فى اللّه ، فأنت ابنته المصطفاة .

يا ابنة الملك ! ارتفعى إلى شرف أصلك الإلهى ولا تقلقى البتة لما يتعلق بثروتك الروحية . بل تابعى حياتك البسيطة فى حضن اللّه ، وتممى مشيئاته وأحببه بغير حساب ولا تخافى البتة : فأنت غنية بحكم حقك فى الإرث السماوى .



# الفصل الثانى
## حياة نسيان الذات
## المقالة الأولى
### معني نسيان الذات

النفس التي استسلمت لله لم تعد ملكاً لذاتها ولم يبق لها فى نظرها وجود ، لم تعد تحيا بذاتها ، بل بالذى تكرست له ، ولم تبق لها مصالح غير مصالح سيدها .

نسيان الذات هو الشريعة العظمى لكل حياة روحية ومعناه أن نقصى عن أعمالنا وأوجاعنا وصلواتنا كل حساب بشرى وكل أنانية ومحبة للذات .

نسيان الذات يعنى أن يتقبل المرء ببساطة من يد الله كل عذاب وكل صعوبة دون تذمر أو اعتزاز ودون النظر إلى طبيعة الحدث ومدته كما لو كان ذلك يصيب شخصاً غريباً عنه . إنه يعنى الاعتدال فى طلب المسرات الشخصية والهرب مما هو محرم منها . فلا ينتقى مما تبقى إلا ما هيأته العناية الإلهية .

نسيان الذات يعنى أن يقدر المرء نفسه على حقيقتها أى كسقط خاطئ ، وألا يشغل ذاكرته وذاكرة الآخرين بشخصه ومزاياه وأعماله ، بل أن يتجنب إلقاء نظرة قلقة

وطويلة إلى أوهانه . انه يعنى الاحتجاب عن أعيننا الخاصة بفعل الارادة حتى لا نجد فى ذاتنا وفي الآخرين سوى يسوع ومشيئته المقدسة .

لقد قال يسوع : من يريد أن يتبعنى فليكفر بنفسه . ولذا فمن أراد أن يكون له نصيب من قيامة المسيح فليرض أولاً بأن يموت معه . ومن أراد أن ينهض من القبر مع يسوع ممجداً فلينزل إليه معه أولاً . ومن اشتهى أن يجد خلاص حياته فليهلكها .

إذن فنسيان الذات هو نكرانها والإماتة والتواضع والموت بالنسبة للعالم ، نسيان الذات هو التجرد الشامل .

وما الذى يجرد النفس المستسلمة لله هكذا ؟ إنه الحب والحب جبار غيور يطلب كل شئ ولا يرد شيئاً . ومتى هيمن على النفس كلها جعلها أفقر الخلائق . إن النفس العادية تستطيع استدراك المستقبل وتهيئة المناهج ورسم المشاريع . إنها تستطيع اختيار شواغلها ومسراتها وهى تستدعى تقدير الآخرين واعتبارهم إنها حرة فى ابداء المودة والصداقة أو حجبهما .

أما النفس التى استولى عليها الحب فقد أضاعت كل

شئ فهي لا تسود عقلها ولا ارادتها ولا مشاعرها ولا وقتها ولا صحتها ، إذ لم يترك لها شئ . لقد نزعت منها أشواقها وميولها ومؤهلاتها وكل ما هو ثروة للآخرين وفخر لهم . ذلك كله قد انتقل إلى خدمة سيدها . والنفس ترضى بهذا التعرى فتتنعم برؤية ذاتها مسلوبة من ذاتها . وتخشى أن تسترجع ما هو لها وتستعطف يسوع حتى لا يرده لها أبداً .

علمنا يا يسوع أن ننسى ذواتنا .

## المقالة الثانية

## كيف تنسي النفس البسيطة ذاتها في كل شئ

إن النفس التي نسيت ذاتها تسكن أعماق الله . وحياتها ، في بساطتها ، ملأى بالعجائب ، لكنها متوارية عن أنظار الانسان العامي .

لا فرق بين النفس المستسلمة والنفس البسيطة . فالنفس المستسلمة بكاملها لله لا تملك سوى نظر واحد تثبته في الله . إنها لا تملك سوى حركة واحدة توجهها في كل أعمالها نحو الله وتثبتها فيه ، دون أن تعود فتتنزلها نحو ذاتها .

البساطة تبعد بطبيعتها كل تفكير . فالنفس المستسلمة لله لا تفكر بذاتها ولا بأعمالها الصالحة ولا بنقاوة سيرتها ولا بالاستحقاقات التى تكدسها بلا انقطاع . إنها لا تتساءل عما يفكر بشأنها الآخرون . وهى لا تطلب لذاتها الرضى والحظوة حتى ولا عطف أى انسان ، لأنها لا تستطيع أن تدعى شيئاً ما دام إنها ليست بشئ .

النفس المستسلمة ليسوع تحب معلمها الإلهى بحرارة وتظهر له هذه المحبة بمختلف الطرق . وتجد فى كل حين طرقاً جديدة لترضى يسوع لأن المحبة خلاقة الأساليب . لكن هذه المحبة هى أيضاً بسيطة ولا تنكمش على ذاتها .

هذه النفس تحب فى الشدائد والتجارب والظلمات والأحزان ، كما فى أوقات النور والصفاء . وإذا وجه إليها يسوع فيض حنانه وغمرها بالفرح والمسرات فهى تتقبل عطاياه بشكر واستسلام .

النفس البسيطة لا تسأل يسوع أبداً عن دوافع تصرفه نحوها لأنها كالطين فى يد الخزاف ترى الأشكال التى يعطيها لها يسوع غريبة وغير مدركة ولكن هل يستطيع

الاناء أن يقول لصانعه : لِمَ صنعتني على هذا الشكل ؟ كذلك ترى النفس أن السبل التي يقودها فيها مرشدها الإلهي لا يسبر غورها ولكن هل بامكانها اسداء النصح للحكمة الأزلية ؟ انها تتقدم بلا خوف تحت ارشاده دون أن تحدق قلقة في مستقبل تجهله ودون أن تهتم بماض لايحيا إلا في الله . إن الحاضر وحده يشغلها ، ولكن من غير تعلق مفرط ، لأنها تعرف أن كل عمل وكل اهتمام على هذه الأرض إنما جعل لتمضية الوقت . ولذلك لا تميز بين الأعمال المختلفة التي تفرضها عليها الطاعة : كل شيء حسن في عينها لأنه من الله يأتي .

وقد تكون الخدمة التي يطلبها الله منها مستحبة أحياناً ومطابقة لرغباتها ، فتشكر الله على ذلك وتتقبل منه ببساطة هذا السرور من غير أن تتوقف عنده . ويكون العمل صعباً أحياناً ويعرضها لمفاجآت مكروهة وعلاقات متعبة وإذلال واضطهاد . إلا أن النفس التي نسيت ذاتها لا تعير أي انتباه ما يعذبها أو يذلها ، فهي لا تعيش لذاتها بل لسيدها . إنها لا تأبه بإهانة توجه إليها أو باحتقار تتعرض له ، وكيف السبيل إلى رؤية هذه الأمور وقد تناست وجودها ، لذا تراها تواصل العمل الذي بدأته لمجد الله بكل

هدوء ، وإن رزحت تحت عبء المهمة ولو سحقتها ضربات الشتيمة والاضطهاد .

إن بساطة النفس وتجردها غالباً ما يثيران الدهشة فى العالم حيث كل شئ رياء وأنانية . ويحاول الناس أحياناً استغلال هذه الاستقامة والسذاجة ، فينصبون لها شراكاً ويحاولون التغرير بسلامة طويتها . لكن النفس البسيطة التى ليست فى نظر ذاتها شيئاً ، والتى نسيت ذاتها ، لا تؤثر فيها المفاجأة لأن التعامل ليس معها بل مع اللّه ، وليست هى التى يحاول الناس إلقاءها فى الحيرة والارتباك بل اللّه نفسه .

## المقالة الثالثة

### النفس البسيطة تحب الصليب

إن النفس التى نسيت ذاتها بالكلية تقوم بكل أعمالها ببساطة بارشاد نيتها السليمة دونما انكماش أو أنانية ، انها شكورة دوماً للّه على كل أعماله وتدابيره . وسيان عندها العافية أو المرض ، اليسر أو العسر ، الحياة أو الموت ، تتقبل الألم برضى ، بأى شكل يعرض لها ، لأنه دوماً من المسيح يأتى .

إن الإنسان الذى ينقصه الايمان الحى يكتشف دوماً

يسوع وراء الحجب التى تحيط به ، فقليلون من الذين عايشوا يسوع عرفوا أنه المسيح الحقيقى . ولقد أثار دهشة الرسل والمجدلية بالمظاهر التى كان يتراءى لهم فيها بعد موته وقيامته . أما الآن فهو لا يزال معنا فى القربان المقدس بصورة سرية خفية عن العيون البشرية لكن النفوس اليقظة التى غمرتها المحبة تتعرف على المعلم من الصليب الذى يلازمه والذى خلص به العالم وأراد لكل أصدقائه أن يكون لهم منه نصيب .

أيتها النفوس العزيزة ، عندما يلّم بك الألم قولى : « هوذا يسوع يمر » ، وبادرى إليه ولا تتركيه منحنياً تحت ثقل حمله بل مدى ساعديك وقدمى كتفيك لتشاطريه حمل صليبه فإنما مر بك ليدعوكِ إلى مساعدته . لا تتعجبى من تنوع الصلبان التى ينعم بها عليك وكثرتها . فالمعاكسات والآلام النفسية وأحزان القلب والاضطهادات والفشل والعسر المادى والضيق المعنوى والعاهات الجسدية . تلك كلها صور لصليب يسوع علينا أن نتقبلها ، « من أراد أن يتبعنى ، فليكفر بنفسه وليحمل صليبه ويتبعنى » (١) .

(١) مت ١٦ : ٢٤ .

ولكن إلى اين يقود المسيح النفس ؟ – إنه يقودها إلى الجلجلة إن كانت أمينة فتعلق على الصليب وتموت عليه فيقول لها يسوع : لقد زرعتك في الأرض يا حبة الحنطة الصغيرة لتموتي فيها وتنحلى ، ولكن متي متِ تنبعث منك الحياة وتنبت ساق جديدة من قلبك وعلى هذا الساق تعاودك الحياة وتخصبين .

يا لسر الصليب ! لابد لنا من أن نموت لنحيا ، فالإيمان يعلمنى ذلك والعقل يوحيه إلىّ والطبيعة بأسرها تشهد به . فلكى أصبح شيئاً يجب أن أرتضى بأن أتلاشى وبأن أنسى ذاتي وبأن ألقى في الأرض وأفنى فيها .

آه ! كم أود أن أكون حبة الحنطة هذه ، المدفونة فى أحشاء الأرض . إنى أشعر بأن يسوع يبقيني سجيناً على هذه الأرض فحياتى تنقضى وكأنها عقيمة . والقوى التى أعطانيها الله تضمحل وتفنى لا فى خدمة القضايا العظيمة المقدسة ، بل فى بطالة قسرية تبدو بلا نهاية . هذا هو القبر ، هذا هو الموت ! ولكن ماذا يضيرنى ، فإن يسوع يرعانى بعينه الساهرة ، ولسوف يبعث الحياة والخصب من قبرى متى ارتضى ذلك ، وعندما يكون دور جهادى على هذه الأرض قد تم .

## المقالة الرابعة

### كل شئ يدعو النفس إلي أن تنسي ذاتها

أيتها النفس العزيزة ، إنك مرتبطة بإلهك فى كل شئ حتى فى أقل شؤون حياتك أهمية ، وله عليك سلطان مطلق . فلا وجود لك إلا به ولا يمكنك أن تحيى إلا له وبحسب مشيئته . أليس من العدل أن يكون هو محور كل أعمالك ورغباتك وأفكارك وكل مالك وكل كيانك ؟ أليس من العدل أن تنسى ذاتك وتمحى أمامه ؟ إلا أن طبيعتنا ضعيفة يا يسوع وهى تحاول قلب النظام الذى وضعته وتسعى أن تحل محل الله وتجعل من ذاتها المحور الذى تدور حوله كل الخلائق ، حتى الله نفسه .

عجيب أمر هذا القمر فهو يحاول أن يأخذ مكان الشمس وهذه الحبة من الرمل تتطاول كى تكون جبلاً ، ونقطة الماء تتشامخ لتملأ المحيط الكبير .

يا لفساد الفهم البشرى وانحرافه ! لقد جعل العقل البشرى من ذاته إلهاً ، وقلب عرش الله ، وقدم ذاته للعبادة ، وأعلن حقوقه تجاه الله وأملى عليه واجباته ، وأعطى البشر الحرية بأن قيدهم بقيود الشيطان وجعل المساواة بأن أقام على نفسه طغاة ونشر الأخوة بعد أن أزال المحبة .

وما فعلته الكبرياء الجماعية تفعله كل يوم الكبرياء الفردية فينسى المرء أنه كائن من العدم قائم على التبعية ، لا يحيا إلا بواسطة الكائن الأسمى وإلا من أجله فتراه يزهو بكرامته ويقيم نفسه سيداً مستقلاً ويبسط سلطانه على كل ما يحيط به ويرفض بتحدٍ وقح أن يؤدى واجب الخضوع الذى يطلبه الإله الأزلى مبدع الخليقة كلها .

« استمعى أيتها السماوات وانصتى أيتها الأرض فإن الرب قد تكلم . عرف الثور قانيه والحمار معلف صاحبه لكن اسرائيل لم يعرف وشعبى لم يفهم (١) . إنى ربيت بنين ورفعتهم لكنهم تمردوا علىّ (٢) » .

لقد قلبت الخطيئة أوضاع الطبيعة البشرية المسكينة فأصبحت لا تحلم إلا بالاستقلال والعظمة وباللذة والغنى ، بينما يهيب بها كل ما فى الكون أن تتضع وتزهد فى مقتنيات هذا العالم .

أما اشارات الموت الكثيرة التى أحاط الله بها الانسان فلم تسكن إلا ليعلمه أن يفتش فيها عن الحياة الحقيقية .

كل الأصوات التى تطرق سمعه تدعوه إلى نسيان

---

(١) اش ١ : ٣ .      (٢) اش ١ : ٢ .

الذات ليصل إلى المجد الحقيقى . كل المسالك التى تطأها قدماه لا تقوده إلى النور إلا عبر الظلمات . كل ما حوله وما فى داخله ينبئه أنه أخذ من العدم . فهو يرى جسده يتداعى تدريجياً ويسير فى طريق القبر يوماً بعد يوم . ويرى أحلام السعادة التى هدهدت صباه تتلاشى واحداً فواحداً كأطياف عابرة . لقد ظن أنه حر مكرم محبوب وذو سلطان . لكن الواقع الأليم يريه أنه تحت رحمة الأحداث وأنه العوبة تلهو بها مخيلته وضحية جشع الآخرين وأنانيتهم ، كل شئ يردد أمامه أنه فى غاية الصغر والحقارة ، كل شئ يدعوه إلى أن ينسى ذاته ويتضع جداً .

ما أعظم السعادة والحرية التى تتمتع بهما النفس لو عرفت أن تصغى إلى هذا الصوت وترجع بتواضع كلى إلى العدم الذى أخذت منه ، واستطاعت أن تعيد نهائياً النظام الذى طالما خرقته بكبريائها وعنادها .

## المقالة الخامسة

### المحبة تسهل نسيان الذات

إن نسيان الذات يخيف أكثر النفوس ، فهى لا تدرك كيف يمكن أن تحب الصليب وتتقبل الاذلال والاحتقار ، لأنها تجهل سر المحبة المقدسة التى لا يمكن أن يوجد

بدونها نسيان حقيقى للذات بل أنانية دنيئة وشهوة وكبرياء .

أما بالمحبة فيعرف الفكر ، مهما كان ضالاً ، أن يجد سبيله ، والقلب ، مهما كان سيسترجع نبله . المحبة المقدسة وحدها تنظم العواطف فتتدارك انحرافاتها وتقصى عنها الفوضى . فتبدل الأنانية بالعطاء ، والكبرياء بالتواضع ، والسعى الشهوانى وراء اللذات والمجد الباطل بالاماتة ونكران الذات .

ومهما انحدر الانسان وتمادى فى الخطيئة يظل محتفظاً بأثر من جماله القديم . إنه طموح يسعى باندفاع وراء أمجاد باطلة وكنوز زائلة : ألم يخلق ليحرز كرامة لا حد لها ويملك خيرات لا تحصى ؟ إنه يحب التمتع ويلاحق لذاته بعناد شديد ، أليس له الحق بلذائذ لا نهاية لها وسعادة لا يمازجها كدر ؟ إنه يتهرب من التعب ويمقت الألم ويكره العمل : ألم يخلق لراحة ولسعادة لا توصف ؟ انه يخشى الخضوع ويمقت العبودية ويثور ضد القوة : ذلك أن دماً ملوكياً يجرى فى عروقه ، فهو ابن اللّه ومخلوق على صورته ومؤهل للملك .

اعد المحبة إلى هذا الانسان تحوله إلى بطل وقديس .

فالمحبة هى المغناطيس الذى لا يقاوم الذى يجذب إليه كل قوى النفس المبعثرة ، فإذا الطموح والرغبة فى الكرامة يتحولان بفعلها القوى إلى غيرة مضطرمة على مجد الله ، والسعى وراء اللذة يتحول إلى تعطش شديد لارضاء الرب يسوع .

يا لقوة المحبة ! إنها كجيش اصطف للقتال .

إن قوة القائد تأتى من الحماسة التى يبثها فى جنوده . فالجيش يتألف ، فى الأساس ، من عناصر غير متجانسة لا يجمع بينها سوى اللباس والعزم والشوق إلى القتال . ومتى كان على رأسهم قائد محبوب قادر على تنظيمهم فهو يجعل منهم جيشاً مرهوباً ، إذ يجمع حوله كل العناصر المتفرقة فتتبنى مخطط القائد عقول الوف المحاربين وترضخ اراداتهم لأوامره حتى انهم ، إرضاء له ، يقاتلون حتى الموت .

وكذا النفس التى تخوض معركة القداسة ، عليها ان تستوحى هذا المثل . ففيها تجيش نزوات جامحة تشكل قوى رهيبة إن لم يسيطر عليها القلب انقلبت عليه . والسبيل إلى هذه السيطرة يكون باعطائها قائداً محبوباً يخضعها له ويضبطها وينسقها وهذا القائد هو يسوع المسيح .

يا يسوع اجعل عرشك فى قلبى لتأتى وتنحنى أمامك كل قواى التى شغفت بك وارتض بأن تتحول إلى طاقات للخير مرهوبة لدى الجحيم . أجل يا سيدى ، فليس لى أن أهدم طبيعتى بل أن أتنازل لك عنها لتنفذ إليها محبتك وتنقيها . فالطريقة المثلى لكيما أنسى ذاتى هى أن أحبك بأن أشغل فكرى كلياً بهذه المحبة . فاملأ يا رب جوانب نفسى ولا تدع لى فيها مكاناً شاغراً كيما أرجع إلى فلك قلبك الإلهى كما رجعت حمامة نوح بعد أن عجزت عن إيجاد مأوى لذاتها خارج الفلك .

## المقالة السادسة

### كلما زادت النفس في نسيان ذاتها ، زاد اعتناء الله بها

ليس على الأرض أعذب من محبة تامة النقاء متحررة من كل أنانية . غير أن هذه المحبة لا يمكن أن توجد إلا بين روحين لم تشوه الخطيئة صفاءهما ونقاوتهما . والنفس تمتلئ حزناً لدى تفكيرها فى أن صداقة جميلة كهذه لا توجد على الأرض . ومع ذلك فالقلب البشرى يحلم بمثل هذه المحبة ويتوق إليها ولا تخور له عزيمة فى السعى وراءها .

يا يسوع إن قلبي يفيض غبطة . فهذه المحبة التي طالما حلمنا بها هي حقيقة قائمة يعرفها قلبك وخبرتها ربوات من النفوس النقية .

ومما يزيد في بهجة هذه الصداقة أنها ، في جوهرها محبة متبادلة ، لأن الصديق لا يحيا في ذاته بل في صديقه ، مفكراً فقط في ما يرضي الصديق . وتتكوّن هذه المحبة المجردة في النفس على درجات وينصرف اهتمام يسوع إلى تقويتها وتنقيتها من كل محبة للذات .

لكن هذه المحبة كاملة منذ ابتدائها من جهة يسوع فهو يعطي ذاته بكاملها وبلا تحفظ حالما تستسلم له النفس . ولا يكتفي ، بهذا بل يواصل سهره عليها فيقيم عناية محسوسة بجانب كل ضعيف وعاجز على هذه الأرض . وقد عهد إلى كنيسته المقدسة بأن تعالج مشاكل المجتمع فتداوي كل مرض ، وتبدد كل جهل وتقوّم كل اعوجاج .

وكل نفس تهم يسوع بمفردها بقدر ما يهمه العالم كله مجتمعاً فهل يقال : ليس هناك من يسهر بجانب النفس الضعيفة التي لا سند لها ؟ كلا أيها المعلم الصالحلن يكون ذلك ، فإن حنوك لا يطيق هذا الافتراض .

ولكن ما عسانا أن نقول إذا كانت تلك النفس فقيرة عن اختيار ورضى وإذا دفعها جنون مقدس سام فتنازلت بين يديك عن كل ممتلكاتها ، واحتفظت فقط بشاغل محبتها لك ، وماذا نقول على الأخص ، يا يسوع ، إذا قامت النفس بهذا التخلي الشامل عن كل عون مخلوق ، بدعوة منك وانقياداً لرغبتك وامتثالاً لأمرك ؟ انك يا يسوع عندما تعظم محبتك نحو خليقتك بهذا السخاء لا تلزم قلبها فقط بل شرفها أيضاً . فإنك إذ تأسرها ببهاء صليبك،تنزع منها كل ما تملك ، أفليس من العدل أن تصبح أنت وحدك لها كل شئ .

أيتها النفس العزيزة ، أياً كانت القمة التي تسكنينها ، فأنت بعيدة عن ادراك حنان يسوع الذي يعطيك قلبه إذ يأخذ قلبك . إنك بالرغم من صداقتك للمعلم الإلهي لا تزالين تعيشين وراء حجاب الأسرار تحيط بك ظلال الايمان . ولسوف يكشف لك يسوع في ملكوته السماوي الذي لا انقضاء له ما كنت له على هذه الأرض وما ستكونين له إلى الأبد . فإذا سمعت اليوم صوته طالباً منك أن تنسى ذاتك لتكوني له إلى الأبد فلا تترددي ولا تحاولي خرق حرمة السر ، بل قولي ببساطة مع الأم الإلهية : فليكن لي حسب قولك .

## المقالة السابعة

## كلما زادت النفس فى نسيان ذاتها زاد تفكير الله بها

كلما تقدمت النفس فى الكمال ، زادت حياتها الروحية ببساطة وهى تتلخص فى النهاية فى هذه الكلمات التى قالها يسوع لإحدى خادماته « فكرى بى فأفكر بك » . وهذا يعنى : أفكر بكرامتك ، بصحتك ، بخيراتك الدنيوية ، أفكر بخلاصك ، بكمالك ، بقداستك . ويسوع الذى يعرف كل شئ لا ينسى شيئاً . فعندما يطلب من النفس تضحية عظيمة مثل النسيان التام للذات فإنه يأخذ على نفسه تدارك كل المتاعب التى قد تنتج عنها بشرياً . فما على النفس إلا أن تطيع وأن تمتنع عن تفحص المستقبل .

كانت أرملة « صرفة » فى فقر مدقع يوم قابلت النبى ايليا . ولم يبق لديها سوى حفنة من الدقيق وقليل من الزيت تسد به الرمق مع ابنها ولا مفر من الموت جوعاً . ومع ذلك ، عندما سألها ذلك الغريب طعاماً أعطته آخر قوت عندها . كان ذلك جنوناً بعرف البشر ، إلا أنه حكمة أمام الله ، وكان مبعث العجيبة .

والنفس البسيطة حقاً تسلك على هذا النحو مع اللّه . فهى لاتفكر إلا بالواجبات التى تفرضها عليها حالتها الحاضرة . إنها لا تعرف التحسب والمداورة والمخاتلة لأن اللّه يتعهدها والمكر والكذب يعجزان عن الإضرار بها . وقد يظن المخادع أحياناً بأن النفس البسيطة واقعة حتماً فى حبائله ولكن سرعان ما يخيب ظنه إذ يفتضح أمره بحادث غير منتظر أو بواسطة كلمة أو اشارة عفوية .

قال الرب لتلاميذه : عندما تمثلون أمام عظماء هذا العالم لا تهتموا بما ستقولونه دفاعاً عن أنفسكم . فالروح القدس نفسه يضع فى أفواهكم ما يجب أن تقولوه . ولو أن الرسل قدروا عواقب أعمالهم الجريئة لما قاموا بالبشارة . لكنهم تركوا الروح القدس يقودهم حيث يشاء فأتموا البشارة على أكمل وجه .

إن حكمة يسوع الإلهية لا تكتفى بالتفكير فى أمور النفس البسيطة ، بل تتدارك أيضاً الأخطار التى يمكن أن تتعرض لها بسبب جهلها وعدم تبصرها . لا يوجد انسان ، مهما كان ذكياً وفطيناً ، لا يتعثر فى خطاه . فهذا التعثر يكون موضوع أحزان وذل عند عامة البشر وربما مرضوا بسببه للهزء والشماتة . لكن مقاصد اللّه تشاء

أن يكون هذا وسيلة لاتضاعهم وتقويم اعوجاجهم والحد من صلفهم .

وأما مع النفس البسيطة فتصرف الله يختلف عن هذا تماماً إذ يسمح ببعض التعثر - وفى حياة كل قديس أمثلة على ذلك - إلا أن هذا التعثر يبقى عادم المفعول بل كثيراً ما يكون للخير والتقدم .

والنفس لا تخسر مطلقاً إذ تدع الله يفكر لأجلها . فالقديس بطرس لما أدرك أن الشبح الذى كان يمشى على مياه بحيرة طبريا ، فأخافه ، كان يسوع ، نسى نفسه قائلاً : « يا معلم إن كنت أنت هو فمرنى أن آتى إليك على المياه » (١) . إن بطرس بطبيعته العفوية لم يضع وقتاً فى التفكير بل بادر ومشى فوق المياه ، إلا أنه لما رأى فجأة الأمواج الطاغية تهدده لم يعد يفكر بالمعلم القدير بل فكر بنفسه وبضعفه فشك وبدأ يغرق . ولكن لحسن الحظ كان يسوع هناك ليتدارك كل خطر .

ومما يلفت النظر فى الانجيل المقدس أن يسوع يقف دائماً مدافعاً عن الضعفاء والمفترى عليهم . ولو كانوا من

---

(١) مت ١٤ : ٢٨ .

الخطاة وما أن يبدى الشخص نحوه بعض الثقة حتى يشعر بأنه ملزم بالدفاع عنه .

فإنه وقف ضد تلاميذه إلى جانب الأمهات اللواتى احتشدن حوله مع أولادهن . ودافع تجاه الحاسدين عن المهتدى الجديد زكا الذى صعد إلى الجميزة ليراه عند مروره ، مع كون هذا العمل يعرضه للسخرية ، حمى المرأة الزانية وأخجل رياء الذين شكوها وصرفها تائبة مؤمنة ، ومانع فى صرف الجموع التى تبعته إلى القفر جائعة ، ودافع عن رسله الذين أخذهم الجوع فقطفوا السنابل فى الحقول يوم السبت ، وبسط حمايته على مريم المجدلية ودفع عنها شر مضطهديها لأنها أحبت كثيراً فاستحقت أن يغفر لها كثيراً .

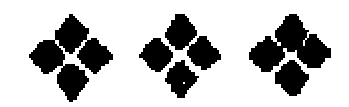
كانت مريم من أعرق عائلات مجدل واشتهرت بفجورها لكنها ، دون أن تخبر أحداً بالتحول الذى حصل لها ، جثت عند قدمىّ يسوع لتقدم اتضاعاً حسبه البعض هوساً وتطرفاً . فقد دخلت بيتاً غريباً عنها وأثارت فيه الاضطراب بين المدعوين وسببت خجلاً لرب البيت .

أيتها المجدلية ! إنك لم تهتمى بما أثرت وسببت من مشاكل عندما كان يسوع حاضراً يتوقع وقوعك على

قدميه لأول مرة ! فقد تكفل المعلم بأن يجيب عنك .

ولم يتوان يسوع عن القيام بذلك ، فدافع عن المجدلية تجاه يهوذا الذى اتهمها بالاسراف . انه فعل أكثر من هذا فقد ارتضى أن يسجل تبريرها فى الكتاب المقدس حتى يخبر بما فعلته حيثما يكرز ببشارة الانجيل .

وانت ايضاً ، ايتها النفس الأمينة ، استسلمى ليسوع وانسى ذاتك ، فيفكر يسوع لأجلك . ولن يقال ابداً إن ثمة كائناً ضعيفاً او محتاجاً لجأ إلى حنانه فرجع خائباً : « من يقبل إلىّ لا أخرجه خارجاً » (١).



(١) يو ٦ : ٣٧ .

# الفصل الثالث

## حياة التفانى

## المقالة الأولى

### ما هو التفانى ؟

بذل الذات لله يعنى أن ننساها حتى لا نعود نفكر إلا بالذى استسلمنا له . وعندئذ يستولى الحب الإلهى على النفس وينصب فيها عرشه ويطرد منها الأفكار الباطلة واحداً تلو الآخر . ومتى خضعت النفس لسلطانه ، تنازلت عن منافعها الخاصة وعن تدبير شؤونها الشخصية وعن الاعتناء بمستقبلها ، لتتكرس بكاملها لخدمة الله تاركة له عبء الاهتمام بكل شئ .

بذل الذات لله يعنى التفانى فى طاعته والتفرغ لخدمة الأهداف النبيلة والمقدسة ، والتجند فى جيش يسوع والعمل على توسيع ملكه بكل الوسائل الممكنة .

أن نحب ، وأن ننسى ذاتنا ، وأن نتفانى ، ذلك هو بذل الذات ، ذلك هو الكمال .

إن أفضل معنى يمكن أن يعطى لحياة الانسان الضعيف . الفاني ، هو التفانى فى سبيل الآخرين ونسيان ذاته كيما يزداد محبة ليسوع .

التفانى يعنى تسليم كل حياتنا ليسوع ، وبذل كل قوى جسدنا له ، وكل حماسة قلبنا وكل عزم ارادتنا وكل نتاج فكرنا .

التفانى يعنى أن نسلم ليسوع كل سلطان على كياننا ، سائلين إياه أن يتصرف به عندما يشاء وبحسب رضاه ، لمجد اسمه مهما اقتضى ذلك من جهد أو ألم ، من نشاط أو راحة ، من تعب أو إماتة أو صوم .

التفانى يعنى أن نكون تحت تصرف المعلم الإلهى إن دعانا : سواء فى خلوة الدير أم فى عزلة الصحراء ، لنرفع إلى الله يدين متضرعتين ، فى الساحات العامة المزدحمة لنذكر العالم الطائش بما تقتضيه الحياة من رصانة والتزام ، أم فى البوادى الساكنة لنحمل الانجيل إلى النفوس المسكينة الجالسة في ظلال الموت ، فى المشغل البسيط أم فى المعمل الصاخب أم فى الكوخ الحقير لنكسب بعرق جبيننا كفاف يومنا من الخبز لأسرتنا وكيما نبنى العالم بجهدنا الذى لا يكل وحياتنا المستقيمة التى لا لوم فيها .

التفانى يعنى بذل شبابنا وصحتنا ووقتنا ومالنا لاعانة البؤساء وتعليم الجهال والاعتناء بالمرضى

ومساعدة الفقراء وهداية الضالين وإغاثة اليتامى ومداواة الآلام البشرية التى لا تحصى .

التفانى يعنى نشر سلطان الحق والخير والجمال فى العالم ، والعمل على اقامة علاقات محبة ووئام بين الأمم . والسعى لتقريب قلوب الشعوب فى سبيل اتحادها كلها بالمسيح يسوع ، وتعميم قيم العدالة والحق فى المجتمع ومحاربة الضلال بأى شكل تقنع .

التفانى يعنى الاهتمام بأوضاع الطبقات الفقيرة الكادحة ، والاسهام فى تخفيف فقرهم المادى والفكرى والخلقى ، والاشتراك فى رفع مستوى الطبقة العاملة ، والعمل على اخماد الأحقاد التى تفرق بين الفقراء والأغنياء ، بين العامل ورب العمل .

التفانى يعنى ، أخيراً ، أن نكون فى جهاد دائم ، بحسب دعوة كل منا ووقته ووسائله ، ضد الضلال والإثم لكيما نرفع راية الخير فى كل بقعة من هذه الأرض ونجمع قلوب الناس برباط المحبة فيخضعوا كلهم لنير الحق ويسجدوا للمعلم الأوحد ، ليسوع ملك الدهور .

ما أوسع مجال العمل وما ارفع هذا المثال للقلب الذى شغف بحب إلهه .

## المقالة الثانية

### الله يوجد النفس فى تفانيها

إن تعدد أعمال التفانى يخبئ فخاً لكثير من النفوس السمحة . فهى معرضة لتوزيع تفكيرها ووقتها ونشاطها على ألوف الأعمال المختلفة . أما النفس البسيطة المستسلمة لمحبة يسوع فتستطيع تجنب هذا الفخ بسهولة .

إن لها فى كل لحظة واجباً خاصاً تتممه بدقة وبلا عجلة أو تباطؤ ، لأنها التزمت قضية واحدة لا بديل يغنى عنها وهى التفانى فى سبيل الله . وإصرارها على حياة الأمانة المستمرة هذه ، هو من النوع الهادئ الصبور لأنه أفضل طريقة تبرهن فيها لله عن محبتها . كل هذا فى الخفاء والانسحاق حتى أنه لا يمكن لأحد أن يرى من مظاهرها أنها تخبئ تحت ستار هذه الدقة والثبات محبة عظيمة لإلهها .

فما أعظم خطأ المرء يا يسوع عندما يظن أن التفانى فى سبيلك يتطلب أعمالاً باهرة ووظائف رفيعة ومناسبات خارقة ومؤهلات خاصة وبيئة ملائمة ! إن الحياة المتواضعة المكرسة كلها للواجب الموضوع أمامنا هى الحياة

الحقيقية ، هى التفانى فى أقوى معانيه وأشدها واقعية .

آه ما أقل تبصر أولئك الذين يترفعون عن الوظائف المتواضعة والاهتمامات البسيطة والواجبات اليومية الحقيرة التى تمتلئ بها الحياة ! إنهم يريدون العظمة والشهرة والنفوذ ويعجبون بالرجال المقتدرين الذين يثيرون حماسة الجموع ببلاغتهم ويلجون مجالس عظماء هذا العالم .

اما أنا أيها المعلم الصالح ، فإنى أعجب اعجاباً أعظم بتلك النفوس المجاهدة التى تقضى حياتها فى عمل خفى متواضع ومهما صادفها من صعوبات وعقوق فهى لا تنى ، ولا تنفك أمينة مخلصة وإن لم يكن حولها من ينظر إليها نظرة عطف واستحسان .

إن الواجبات اليومية ، والأعمال التى تفرضها الظروف الحاضرة هى مدار نشاط النفس المكرسة لله . فإن كانت أمينة يسر الله احياناً بتوسيع مجال عملها ويوحى لها بأشغال أخرى أعظم اهمية وأوسع مدى .

لذا كان واجب النفس أن تنتظر بهدوء نداء الله . فإذا دعاها منذ مطلع النهار لتذهب وتعمل فى كرمه ، تكون مستعدة وتطيع بفرح . وإذا انتظر سيد الكرم حتى

الساعة الحادية عشرة ليدعوها تكون ايضاً مسرورة ، فذلك دليل على أنه اللّه لم يكن بحاجة إلى خدماتها قبل هذا الوقت . وإن لم يدعها البتة فهذه أيضاً مشيئته والدلالة الأكيدة على أنه يريد أن يدع لها الوقت للتأمل . انه السيد وله وحده أن يحدد ما يلائم مجده .

إن روح اللّه يهب حيث يشاء وعلى المرء ان يكون سريع الاستجابة لهمساته حذراً من أن يضع ارادته مكان ارادة اللّه فيفرض خدماته عليه تعالى . كلنا يعرف أن القديس منصور دى پول استطاع ان يحقق مشاريع كثيرة لتخفيف وطأة البؤس عن التعساء ولتعليم الأولاد وتبشير النفوس المهملة ، وتقدم المؤمنين الروحى ، ومع ذلك يقول القديس : إننى أنتظر دوماً ، قبل البدء باى عمل ، أن تخطو العناية الإلهية الخطوة الأولى . فليس هناك شئ أهم من هذا الخضوع التام للمشيئة الالهية .

ومتى أعلن اللّه مشيئته بوضوح فإن النفس لا تعود تتردد بل تستسلم بفرح وتبذل ذاتها بلا حساب ، كما أنها تضحى له ، عند الحاجة ، بمحبتها للعزلة وللحياة المتواضعة المستترة ولا تطمع فى شئ : لا فى العظمة ولا فى الشهرة ولا فى النفوذ ، كما انها لا تخشى شيئاً ما دام اللّه قد عبر عن رضاه .

إنها لا تقتدى بتلك النفوس الجبانة المتخوفة التى تتعلل بتواضع كاذب لتترك الفرصة التى يقدمها الله لعمل الخير تمر دون أن تستفيد منها . كما أنها لا تصر على رفض الوظائف التى تضعها أمامها طاعتها لله ولو كانت لها فيها كرامة ورفعة ، بحجة أنها ليست بارعة فيها أو أنها تفضل الحياة المستترة المتواضعة . ولا ترفض ، لخوفها من أن تفقد بساطتها وحدودها أن تتعامل مع أهل العالم وعظماء هذا الدهر وأقويائه وأن تشتهر ، عندما تتطلب الظروف ذلك ، لأنها تعرف جيداً أن التراجع فى هذه الحال يعنى خيانة قضية الله والسعى وراء الراحة الذاتية على حساب مصالح السيد له المجد .

## المقالة الثالثة

### لا محبة بدون تفان

لما أتى يسوع إلى هذا العالم لم يعلم شيئاً لحب من التفانى . وقد نبتت هذه الزهرة الصغيرة - إن صحت تسميتها بهذا الاسم - على الجلجلة عند قدم الصليب وفى الأرض التى خضبها دم يسوع . ومنذ ذلك الحين لم تختف هذه الزهرة عن وجه الأرض لأن هناك أصدقاء يتعهدونها بعناية . إنهم يعرفون التربة التى تحبها

والعصارة التى تتغذى بها . يعرفون أنها تهرب من مناخ الأنانية الجليدى وترتاح إلى مناطق المحبة الإلهية الحارة ، فمكانها الحقيقى المفضل هو حيث تغمرها محبة يسوع .

وأنتِ أيتها النفوس المتحمسة هل تعرفين هذه الزهرة ، هل أعجبت بجمالها وتنشقت عطرها ؟ أفلا تريدين أن تدخلى السرور إلى قلب يسوع فتقبليها فى قلبك وتتعهديها فيه بعنايتك ؟

المحبة والتفانى زهرتان لساق واحدة وقد نقلهما يسوع من الحديقة السماوية إلى أرضنا القاحلة فنمتا فيها وتفرعتا وتكاثرتا ودخلتا حدائق العظماء وأرض الفقراء الوضيعة ومنها تفرعت فى كل مكان فضائل رائعة : من نكران ذات وتواضع وتضحية ووداعة وتسامح ، وامتلأت الأرض ، المقفرة سابقاً ، بالمستشفيات ومأوى العجزة وملاجئ الأطفال والمدارس والملاجئ العامة . وكثر فيها صانعو الخير .

ليس من تفان بلا محبة ، كما أنه ليس من محبة بلا تفان . يا يسوع ما أحسن أن تبعث محبتك فينا فنعرف التفانى الحق !

# المقالة الرابعة

## الأنانية تقود العالم

كان البشر يا يسوع يحبونك محبة إلهية ولا تزال قلوب كثيرة نقية تحبك وتتفانى فى سبيلك حتى الممات .

ومع ذلك فقلبى ينبض بالأسى لأن عدد هذه النفوس الملتهبة محبة يقل يوماً بعد يوم إذ ان الأنانية تعود إلى قيادة العالم ناشرة سمومها فى المجتمع بأسره . انها تنفذ الآن إلى الحياة العائلية وتحاول التسرب إلى الكنيسة نفسها . فهل يجد يسوع محبة فى العالم متى عاد إلى هذه الأرض ؟ وإنك أينما اتجهت ترى سعياً وراء الملذات وطعماً وبنخاً مفرطاً واضطهاداً للضعفاء وازدراء بالتعساء ونفوراً من الفقراء .

آه يا زهرة التفانى الصغيرة التى نقلها يسوع إلينا من السماء لتجتذب بنى البشر بعطرها ! إننى أراك مزدراة ومفترى عليك ومضطهدة . فكيف تستطعين بعد أن تعيشى فى جو مشبع بالأنانية ؟ اطلبى إلى البستانى الإلهى أن يردك إلى الجنائن السماوية لأن الشيطان سكن هنا والظلام يتكاثف حولنا والبرد يزداد قرصاً والوثنية الشنيعة تعود كشبح بشع مهددة بأن تلفنا بكفن عظيم .

ترأف بنا يا يسوع : « أقم معنا فإن المساء مقبل (١) »، وقد مال النهار ، والليل القائم يفزعنا باشباحه ، فابق معنا .

لا تنظر أيها السيد الرحيم إلى عقوقنا المتكرر . بل أنظر إلى هذا العدد الضئيل من النفوس المستقيمة التى هى لك بيننا واشفق علينا . إنها قد بذلت لمحبتك بلا تحفظ ، وهى تتبعك إلى أى مكان فى الحياة وفى الممات . فهل ترذلها أيها السيد ؟ لا . يا يسوع ! ولو لم تبق سوى نفس واحدة محبة فأنت لن تحجب عنا رحمتك .

أما أنا يا رب فقد قررت منذ الآن أن أستسلم تماماً لمحبتك وأكون متفانياً فى طاعتك . وسأتيك بقلوب أخرى كثيرة أنقى وأكثر حباً لك لنؤلف جوقاً يرفع إليك فى كل حين الشكر والتسبيح .

## المقالة الخامسة

### التفانى بالصلاة

كل شئ يؤثر فى النفس التى استسلمت لله ويسهم فى جعل حياتها أكثر خصباً ، إن عملها أو صلاتها أو مثالها . كل شئ فيها يحمل الطابع الإلهى ، وتفيض

(١) لو ٢٤ : ٢٩ .

القداسة منها من كل جانب وتنسكب على النفوس التى تحيط بها .

إن صلاة بسيطة من نفس نقية ورعة يستجاب لها أكثر من تضحيات آلاف النفوس العادية وابتهالاتهم ذلك « لأن طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها » (١) ، وقال يسوع لإحدى القديسات : « أصدقاؤك هم أصدقائى ، ولحب من تحبين فاطلبى منى أن انفعهم » .

ويسر الله أحياناً بأن يقدم لأمة بكاملها مساعدات خاصة ، ويضع أمامها مجالات واسعة لترجع إليه تائبة . لذلك تلاحظ ، حيناً بعد آخر ، فى هذا البلد أو ذاك أن الروح القدس يعمل بقوة وأن هناك تيارات اهتداء إلى الحقيقة لا تفسر وتغييرات عميقة الجذور وتحولات فجائية فى الرأى العام نحو الكنيسة والدين ، دون أن يظهر أى مبرر خارجى لأى منها . بل ، على العكس ، يكون كل شئ منافياً لتقديراتنا . لكن يوجد فى بعض زوايا العالم ، نفوس نقية استسلمت بكاملها لمحبة يسوع تصلى لأجل الانسانية جمعاء أو لأجل إحدى الأمم على وجه التخصيص .

يا لشقاء العالم لو أنه خلا من القديسين ، إذ لا تعود

---

(١) يع ٥ : ١٦ .

هناك قوة قادرة على ايقاف ساعد العدل الالهى من انزال العقوبة بهذا العالم الطائش . أما القلب البسيط الطاهر فهو وحده قادر بصلاته أن يوقف غضب اللّه ويستنزل مراحمه .

في القديم كاد الرب يبيد الشعب العبراني أكثر من عشرين مرة لو لم يكن موسى يتشفع فيه. وكان اللّه يقول لعبده : دعنى أعمل ولا تزعجنى ، وسأجعلك رئيساً لأمة اقوى من هذه لكن موسى كان يصلي إلى أن صارت الغلبة للرحمة .

وأنت أيتها النفوس العزيزة المستسلمة بكاملها لمحبة يسوع ، صلى لأجلنا نحن الخطاة ، صلى لأجل الأمم غير المؤمنة ، صلى لأجل الشعوب المسيحية التى كفرت ، صلى لأجل وحدة الكنيسة صلى لأجل العالم والحى على اللّه بصلاتك فهو لا يرفض لك طلباً وليس من تأثير في شؤون البشرية يعادل تأثيرك . بهذا تخدمين قضية الخير الأوحد .

إن النفس أن تتمسك بايثار كلي بخدمة الصلاة هذه وأن تجعل منها رسالتها ودعوتها في هذه الحياة . فالواقع البشرى يدل على أن الجميع لا يستطيعون أن يمضوا ويعلموا ويتركوا عيالهم ووطنهم للسعى وراء النفوس

الضالة وهدايتها ، لكن الجميع يستطيعون الصلاة . هناك من كرسوا حياتهم لرسالة التضرع هذه دون سواها ولجأوا إلى الأديرة ليستطيعوا القيام بذلك على أكمل وجه . وبما أن الجميع لا يستطيعون الاقتداء ببطولة هؤلاء ، فإن بوسعهم إن أحبوا ذلك وأرادوه ، أن يكرسوا حياتهم للصلاة لأجل الخطاة وأن يقدموا لله ، فى سبيل ذلك ، أعمالهم وأتعابهم ومشاكلهم ، وهكذا تتحول حياتهم كلها إلى الصلاة وتنطق كل جوارحهم بالابتهال .

وهناك أوقات يختارها الرب ليدعو النفس كى تزداد دنواً من قلبه ويسكب عليها فيض حنانه . إنها لحظات عذبة تعرفها كل نفس نقية . وكلما ازداد القلب بذلاً ونقاء سر الرب بأن يكثر تلك اللحظات ويطيلها . وعلى النفس أن تستفيد من هذه الأويقات السعيدة .

فيا أيتها النفس النقية انسى ذاتك ومصالحك الخاصة عندما تكونين بالقرب من يسوع - لأنها فى أمان فى قلب المعلم - ولا تفكرى إلا بالعالم ، بالنفوس المسكينة التى تهلك فيه ، بالخطايا العديدة التى ترتكب فيه ، واسألى الفادى الإلهى أن يرأف بشعبه . كونى لجوجة فى صلاتك إلى أن يستجيب لك . كونى متفانية لأجل المسيحية الخاطئة فتخلصى ، كهيوديت ، المدينة المقدسة من الأعداء الذين يحاصرونها .

## المقالة السادسة

### التفاني بالقدوة

يجب أن تتفانى النفس فى الصلاة ، لأن للصلاة تأثيراً كبيراً على الله . كما يجب ان ينعكس هذا التفانى بالقدوة التى تقدمها للآخرين ، لأن للقدوة تأثيراً كبيراً على القلب البشرى .

لا شئ يستطيع أن يدفع النفوس إلى القداسة كما تدفعها قدوة حياة مثابرة على الفضيلة . فالصديق والرجل الأمين لواجباته هما عظة دائمة وحافز للقلوب النقية وتبكيت للمتهاون وتأنيب ودينونة للخاطئ .

إن هذه الحياة المكرسة لتتميم الواجب اليومى دون سواه ، مهما كان خفياً أو متعباً ، وهذه الأمانة فى القيام بأقل الفروض من غير تراخ ، وهذا الازدراء العجيب بكل منفعة خاصة وبكل وجهة نظر بشرية محضة ... كل هذه النواحى المحببة للفضيلة الحية البناءة الفاعلة فينا تجذب وتستهوى أكثر الناس لا مبالاة . وما يؤثر فيهم بالأكثر هو البشاشة الدائمة والاتزان فى الطبع والوداعة فى العمل والاستقامة التى تتحلى بها تلك النفوس التى أسلمت ذاتها لله .

وقد كان ليسوع تأثير عظيم على الذين رافقوه ،

وكان ياسر بصلاحه وتواضعه كل الذين عرفوه . لقد كان يسوع محسناً إلى الجميع على الدوام حتى لقد ظهرت رسالته وكأنها محصورة فى عمل الخير : بيد أن هذا الاحسان الذى لا يكل كان يكتسب الخطاة ، فيهدى زكا ويصلح المجدلية ويعيد الزانية والسامرية إلى سواء السبيل . كما أنه كان يجتذب إليه الأولاد والمرضى والأرامل والحزانى فيباركهم ويصرفهم معافين ومملوئين بالتعزية .

ما أحذقك أيتها المحبة ! فأنت تعلمين أشياء لا يستطيع أى قلب طيب أن يصمد أمامها . إنك وديعة مراعية ضعف الانسان ، مملوءة رقة وتهذيباً ، تحترمين كل مخلص فى رأيه وتنفذين إلى العقول المتمردة وتطردين منها كل تهور ، وتلجين إلى القلوب المغلقة وتنقينها من الحقد والضغينة . كل شئ يخضع لسطوتك ، حتى أن النفس التى تتملكينها تصبح مقربة إلى كل قلب ، إذ لا يستطيع أحد أن يقاوم سلطان نفس لا تحيا إلا لتعمل الخير ولتخفف أثقال الآخرين وتجنبهم الملل والتعب .

نعم ! من تراه يعارض نفساً همها الوحيد أن تفرح الآخرين وأن تتحمل الضيق والمكاره بلا تبجح وبكل بساطة كأنها أشياء تستحقها ؟ من تراه لا يقبل أن يحب

أمثال هذه النفوس ، من لا يخضع لسطان فضيلتها ومن لا يجد فى ارضائها بدوره ؟

وهكذا ، كلما بذلت النفس ذاتها وتناستها ، اجتهد الجميع بأن يعاملوها بالمثل وأن يفتكروا بها . ليس اللّه وحده هو الذى يهتم بها ، بل هناك ايضاً الخلائق التى تضحى النفس بذاتها لأجلهم . إنها ، بعد أن تخلت عن كل شئ ، تجد كل شئ بوفرة أعظم وبصورة أثبت . وهذا هو التحقيق الأبدى لكلمة يسوع : « من أضاع نفسه يجدها » (١) . وهو لا يجد نفسه فقط بل يخلص ايضاً نفس قريبه . ولأنه تفاني ، لأنه بذل حياته لأجل إخوته فهو يرى ذرية كبيرة . إن ذكر الأناني يمضى معه ، أما ذكر الصديق الذى عاش للآخرين فيكون مباركاً .

## المقالة السابعة

## التفاني عن طريق الأمانة

## في اتمام الواجبات

إن الوقوف موقف المتفرج إزاء الصراع القائم بين التفاني والأنانية غير مستطاع ، لأن للنفس دوراً يجب أن تمثله ، شاءت أم أبت ، وقد قال يسوع : « من ليس معى فهو عليّ ، ومن لا يجمع معى فهو يفرق » .

---

(١) مت ١٠ : ٣٩ .

إن من لا يحارب في صفوف المسيح فهو جندي في جيش الشيطان . ومن لا يتخل عن كل شئ ليتفرغ لعمل الخير يزد عدد الأنانيين وأصدقاء الشر . فكل نفس مسؤولة عن نتيجة المعركة فتسهم إما في عقد لواء النصر للخير وإما في رفع راية الشر . وفي هذه المعركة ، ليس القادة هم الذين يقومون دوماً بأهم الأعمال ، فقد يعود الدور الفصل ، في أكثر الأحيان ، إلى جنود بسطاء ، إلى أشد النفوس معرفة بالمحبة ونسيان الذات والتفكير في مصالح الآخرين . تلك هي النفوس التي تحرز أعظم الانتصارات لأن النفس المستسلمة بكاملها ليسوع هي أعدى أعداء الجحيم .

فكم من رجوع إلى الله تم على يد نفس بسيطة تقوم بواجب المحبة بتواضع قرب أسرة المرضى في المستشفيات ! وما أعظم التأثير الذي تحدثه في أسرتها فتاة تقية أو زوجة مخلصة ، أو أم مهتمة بخير أولادها .

من لا يتذكر في هذا المجال متأثراً قصة القديسة مونيكا التي هدت زوجها وحولت إبنها أغسطينوس الملحد الطائش إلى معلم للكنيسة وقديس . من لم يتأثر عند قراءة مذكرات سيدة معاصرة ، هي اليزابيث ليسور E.leseur التي تفانت لتهدي إلى الايمان لحد دعاة الالحاد

بعد أن تزوجها ليجرها إلى إلحاده ؟ كم كان اخلاصها وتجردها عظيمين وكم ذرفت من الدموع ! وكم بذلت خصوصاً من المحبة لتخلص نفس زوجها . لقد كانت تلك الزوجة المثالية على حق عندما قالت : « حسن أن يفكر الأنسان ، وأحسن من ذلك أن يصلي ، لكن المحبة هي كل شيء » . أجل ، المحبة هي كل شيء لأن فيها الصلاة والتفكير . المحبة هي كل شيء لأنها ، كما رأينا ، نسيان الذات والتفاني ، وما من كائن يصمد أمام التفاني . فهو السلاح الوحيد المنتصر دائماً لأنه سلاح فائق للطبيعة ولا يحسن استعماله إلا القديسون .

الا تتشوقين يا نفسي لتعيشي حياة التفاني هذه ؟ الا ترين أنه ليس هناك أجمل وأقدس من أن يعمل الانسان دوماً على ان ينسى ذاته وأن يكثر من الاحسان حوله وأن يقابل الشر بالخير من غير أن يطلب اعترافاً بالجميل أو ينتظر تقديراً ؟

إن بذل الذات بدون تحفظ ووضع كل امكانيات المرء : قواه ووقته وقلبه وعقله تحت تصرف الآخرين لخدمتهم وتعزيتهم وهدايتهم سواء السبيل ، هو هدف لا أسمى ولا أرفع منه . هنا تظهر البطولة والتضحية في أقوى

معانيهما ، هنا ، عندما تذوب الذات على مهل فى خدمة المصلوب كما تذوب الشمعة على المذبح .

أرى الرؤســـاء مـــشـــغـــولين فى حكم بلادهم ، والسياسيين يحاولون تقرير مصير الأمم ، أرى الشعوب تتنازع التفوق فى العالم فينقض بعضها على بعض بجنون وحشى ، أرى الناس يجوبون البر والبحر ليجمعوا الثروات ، يفنون حياتهم فى أعمال شاقة ليصلوا إلى مجد باطل . أما أنا يا يسوع فلا أريد إلا أن أحب وأتفانى ، آمالى تنحصر فى النمو بالمحبة حتى أتوصل إلى بذل ذاتى أكثر فأكثر . صحيح إن طموحى لا حد له ، لكنه يزدرى بمجد العالم ، فالمملكة التى أريد أن أحكمها هى قلبى . أريد أن يكون توقانى كله إليك ، ومطابقاً لرضاك . أنا لا أبتغى على هذه الأرض إلا أن أحب وأســـاهم فى بسط مملكة المحبة .

## المقالة الثامنة

### الله يملأ بالخصب حياة النفس المستسلمة له

التفانى الحقيقى هو أن يكون الانسان بين يدى اللّه أداة طيعة فكلما أفرغت النفس ذاتها من كل غاية أنانية ، كانت سهلة الاستخدام ، ومرنة ، ومن ثم جديرة بأن تهئ مجد اللّه .

إن الجهود التى يبذلها البشر فى سبيل مجد الله ليست عادة تلك التى تلفت النظر . فملكوت الله ، مع كونه فى هذا العالم ، ليس من هذا العالم : إنه روحى ولذا فهو خفى أما ما نظن أننا نرى منه حولنا فهو مجرد ظواهر والأشخاص الذين يحتلون فيه ، ظاهراً ، مكانة مرموقة ويديرون شؤونه ويعضدون أو يحاربون مصالحه ، ليسوا إلا ظلالاً تروح وتجئ برهة على المسرح لتدع المكان لظلال أخرى . ولكن الستار لا يرفع أبداً ويستمر التمثيل دون أن يظهر الممثلون لنا . ومن هذا المسرح اللامحدود لا نرى ، نحن المسجونين فى أفقنا الضيق إلا تفاصيل ضئيلة . فكيف نتجاسر إذن ، ونحن فى هذا الوضع ، أن نبحث فى قيمة دور كل منا فى هذه الحياة ؟ فلله وحده أن يعرف ذلك وهو الذى يوجه الجهد البشرى كله إلى هدف واحد .

إننا نخطئ إذ نظن أن حياتنا لا فائدة منها وأن أعمالنا عقيمة لأن النجاح لم يكلل جهودنا . فهناك عظماء عديدون وقفوا ذاتهم لخدمة الخير إن فى العالم أو فى الدير ، ومع ذلك باءت كل مشاريعهم ظاهرياً بالفشل . وبوسع كل واحد منا أن يذكر أسماء رجال دولة وسياسيين وأساقفة وكهنة قضوا كل حياتهم يحاربون بلا جدوى أفكاراً سائدة ونفوذاً مسيطرة ، ومخططات ضمن لها النجاح مسبقاً .

فكان نصيبهم فى كل هذا هزيمة دائمة وهدماً كاملاً لآمالهم المشروعة .

ومع ذلك لم ينتصر أحد قط مثل هؤلاء الرجال الذين كانوا دائماً مغلوبين . ولم يحصل أحد على نجاح حقيقى مثل هؤلاء الأبطال المعيرين دائماً ، الذين طالما قهرهم العنف ، ولم يخدم أحد قضية التمدن الحقيقي والايمان مثل هؤلاء المغلوبين دائماً . إن تفانيهم ، العقيم فى ظاهره ، قد كان الثقل الذى أمال مع الزمن كفة الميزان إلى جهة العدالة المظلومة والحقيقة المسلوبة ، والبراءة المضطهدة .

هكذا انتصرت تلك الشعوب التى سحقها طيلة قرون عتو ملوك طغاة . فإن الدموع والآلام والإصرار على تحدى النفى والاستشهاد ، فاضت كلها كنهر طال ضبطه تحت الأرض ، فاندك المعقل الذى كان يعتقد أنه لا يتزعزع وقد حطمت أساساته .

هكذا عاشت أيضاً تلك الشعوب التى طالما تحملت جور جيرانها الأقوياء ، واضطهدت فى وطنيتها وشعورها الدينى ، فسلخت وشردت وقضى عليها أن تئن عاجزة وتبكى مجدها التالد وحريتها السليبة .

هكذا تغلبت المسيحية على الاضطهاد الوثنى وعلى

قسوة السلطات المدنية وعلى رياء قسم من أبنائها أو هرطقتهم .

هكذا سينتصر يوماً المسيحيون المضطهدون في أعز معتقداتهم ومشاعرهم . فالتضحيات التي بذلت والدموع التي سكبت ، وأعمال التفاني التي تكاثرت في سبيل قضيتهم المقدسة ، مع كونها عقيمة في الظاهر ، تتصاعد مرتفعة ، أمام عرش الله ، وتحدق به كجيش لا يغلب ، وإذا باولئك الذين كان يعتقد أنه قد كتب لهم الهزيمة الدائمة ، قد أحرزوا النصر على الكفر وبعثوا الحياة الروحية .

هذه الأمور التي تبهر بوضوحها كل متفحص للوقائع التاريخية العظيمة تتحقق سرياً في حياة كل نفس ، النفس التي تعتبر ذاتها غير نافعة وغير مؤهلة لجلائل الأعمال ، هي التي قد يختارها السيد لتضع أسس أعماله البهية . وتلك التي تتأوه سراً لعدم نفع حياتها قد تصبح سبب خلاص لألوف الخطاة .

لا ريب أن هذه النفوس المسكينة لا يكون نصيبها دائماً أن تشاهد بفرح هذا النصر ولا هذا البعث . فقد تترك أرضنا هذه وهي تنوء بثقل اخفاقاتها وأحلامها المتبددة ، لكن الله ساهر . وهو سيكافئ تضحياتها ويولي هذا البذار في أوانه ثمراً يضاهي مئات أضعافه .

وقد حفظ التاريخ بعضاً من هذه الحوادث العجيبة إذ اننا نعرف كيف أن عمالاً فقراء وبنات جاهلات وراهبات مجهولات ورجالاً لا كفاءة لهم ولا نفوذ ولا مال ، قد انشأوا أو وسعوا نطاق أعمال عظيمة تعود على الكنيسة والانسانية بالخير الجزيل .

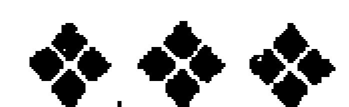
وإلى جانب هذه الوقائع القليلة التى أراد اللّه أن يطلعنا عليها ، وقائع كثيرة بقى محتفظاً بسرها حتى تجاه النفس التي تكون قامت فيها بدور البطولة .

كل نفس مستسلمة للعناية الالهية تصبح مركز تأثير تنتشر أشعته وتمتد إلى ما لا حد له . ولذا فإن صلاة القلب النقى أو مثله أو عمله تكون اشعاع نعمة حوله يمتد تأثيره إلى عدد متزايد من النفوس ويتسع هذا التأثير كلما ابتعد عن المحرق الذى ينبعث منه .

أما علاقات النفوس فى ما بينها وتفاعلها المتبادل ، والتأثير الذى تمارسه كل واحدة على الأخرى لناحية الخير أو الشر ، فهذا كله نكاد نجهله تماماً . لكننا نعرف فقط وعلى وجه العموم ، أن اللّه يقدس الواحدة بالأخرى وإنه يمنح النفوس الضعيفة أو الخاطئة نوراً وقوة بصلوات النفوس العزيزة عليها ، غير أن هذه التأثيرات الخفية وهذا التضامن تبقى مغلفة بالظلام . إنه مما يبهج النفس

أن يعرف المرء خفايا تاريخ حياة ولو بالنسبة لنفس واحدة وأن يتبين مقدار طاعتها للمشيئة الإلهية وخصب بذل ذاتها لله ، وأن يكتشف ما لها من تأثير فائق للطبيعة فى كل نفس تتصل بها ، وأن يتابع تطور هذا التأثير وتشعباته التى تكاد لا تحد !

ولكن ماذا ينفع كل هذا ؟ انه لا يؤول إلا إلى اثارة فضول باطل . فحسبى يا يسوع ، أن أعرف أننى لك بكاملى ، بينما تهتم أنت بجعل حياتى خصبة ، فتثمر لمجد اسمك القدوس .



# الخاتمة

## السيدة العذراء مثال حياة الاستسلام لله

إن سر قداسة جميع الأبرار كان في بذل ذواتهم لله من كل قلوبهم ، وفي إتمام مشيئته والاستسلام لعنايته . أما النفس التي تفتش عن غير ذلك أو عما يجاوزه فتقع في الخطأ والضلال .

وقد سلك كل قديسي العهدين القديم والجديد هذه الطريق التي تؤدي وحدها إلى القداسة التي لا تعني بالضرورة اجتراح المعجزات والعجائب الخارقة .

وليس بين الخلائق الطاهرة من يعادل في قداسته والدة الإله . ومع ذلك فقد كانت حياتها بسيطة جداً : لقد مرت بكل أحوال النساء اللواتي من طبقتها . فعاشت وترعرعت وتعلمت كالأولاد الذين من عمرها . كانت ربة بيت وأماً تتمم واجباتها في كل من الحالين وذهبت إلى الهيكل للتطهير كالنساء العاديات وكانت تزور أورشليم كل سنة حسب عادة اليهود .

وفي ما عدا ذلك كانت تهتم بتدبير بيتها المتواضع . وكان يوسف ، يساعده يسوع الشاب ، بتدبير حاجات الأسرة . كانا يعملان سوية في دكان النجارة .

وبعد موت يوسف قام يسوع وحده بإعالة أمه . وليس

فى كل هذا ما يستلفت النظر أو يدعو إلى الاعجاب فلم يجد الانجيلى ما يسجله ، مدة عشرين سنة من حياة مريم ، من أعجوبة أو عمل خارق أو حتى حادث بارز . فقال ببساطة : كان يسوع ينمو فى السن والحكمة وكان خاضعاً لأبويه .

ولم يكن بين أقرب أقارب مريم ومعارفها من يعرف سر أمومتها الالهية غير أسرة اليصابات . لم يكن إذن فى تصرفها ما يدل على سامى مكانتها . ولقد اتخذها اليهود فيما بعد حجة ضد يسوع حينما قال إنه ابن اللّه . وكانوا يعتبرونها امراة لا تتميز فى شئ عن أفراد بيئتها الاجتماعية .

إننا لا نرى ، قبل قيامة يسوع ان اخلص أصدقائه بما فيهم الرسل ، كانوا يقدرون الكنز الذى يمتلكونه فى شخص والدة الاله حق قدره . ولم تنفتح أعينهم إلا بعد حلول الروح القدس ، فخصوا أرفع الخلائق واحن الأمهات بخالص محبتهم البنوية . لقد رأى يسوع أن تكون حياة عذراء العذارى بسيطة وخفية لأنه أرادها مثالاً لحياتنا . فلم يشا بأن يجنب امه النقية رؤيته مصلوباً ورضى بأن تقاسى الاضطهاد والألم المرير لأنه اراد أن يجعلها أم الأوجاع ، واكثر من شقى من الخلائق ، حتى تكون لنا فى

احزاننا وفى المصاعب الملازمة حياتنا على الأرض ، مثال خضوع واستسلام .

الكلام الذى لفظته عند شعورها بأعظم فرح يمكن أن يخالج قلباً بشرياً ، رددته فيما بعد فى خضم قلقها الهائل : « ليكن لى بحسب قولك » (١) . ففى هذه الكلمات القليلة كل سرها ، كل قداستها : انها بذل ذاتها التام لله ، انها أوفى استسلام لعنايته ، انها أرق وأعظم محبة نحو ابنها وإلهها .

فيا أم الله ، علمينا البساطة ، أهلينا أن نرجع ونصير أطفالاً نتعلم منك كل خضوع وطاعة واستسلام لله ليكون سر حياتنا كلها ، كما كان شأنك : محبة يسوع وعمل مشيئته وتقبل كل شئ من يديه .

وأما ما تبقى فيضمنه لنا يسوع بشفاعتك ، آخذاً على عاتقه همومنا وأثقالنا ومتداركاً كل حاجاتنا ومنقذاً إيانا من كل المصاعب ، وعلى الأخص : غافراً لنا ، على الدوام ، عقوقنا وخطايانا .

نعم ! إن كل حياتنا يجب أن تنحصر فى شئ واحد : محبة الله والبوح له ، بلا انقطاع ، بهذه المحبة إلى أن تتم لها السيطرة على قلوبنا سيطرة تامة .

---

(١) لو ١ : ٣٨ .

# محتويات الكتاب

# القسم الأول

## المبادئ الاساسية لبذل الذات

## الفصل الأول

### من العدل أن نبذل ذاتنا لله



## الفصل الثاني

### من الحكمة أن نبذل ذاتنا لله

## الفصل الثالث

### من السهل أن نبذل ذاتنا لله

# القسم الثانى

## ممارسة تسليم الذات لله

# الفصل الأول

## ممارسة تسليم الذات بوجه عام

## الفصل الثانى

### ممارسة التسليم وقت الشواغل المختلفة

## الفصل الثالث

### ممارسة بذل الذات ابان المحن



## القسم الثالث

### نتائج بذل الذات

## الفصل الأول

### حياة المحبة

